تهاني

# تهاني

مهـا عبـد المنعـم

روايـــة

ISBN 9789776597103

© Willows House 2021

الطبعـة الأولـى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكة، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطّيّ من الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

مها عبد المنعم

# تهاني

رواية

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

2021

# 1

ترددت كثيراً قبل أن أقاوم النعاس، وأنا أحاول تبيان ما سمعته قبل قليل، هل هو صراخ حقيقي أم إني أحلم؟ بعد لحظات وقبل أن أصحو تماماً تأكدت .. نعم هو صراخ أنثوي متكرر حاد بنبرةٍ ضعيفة، يأتي من نصف البيت الآخر ماذا أصابهم؟ قفزت مسرعة، تناولت ثوبي في يد وحملت هاتفي في اليد الأخرى، وفي خطوات قليلة عبرت الباب الفاصل بيننا لألحق بهم.. الليل حالك السواد .. لا وجود للقمر، وسحب داكنة تحجب السماء عنَّا.. يبدو المكان ساكناً حتى النجوم ضوؤها شديد الخفوت، يظهر على حياء من خلف السحب.. اقتربت من مفتاح المصباح لإضاءته لتنتهرني بقوة عجيبة:

- لا ما تفتحي "بجي يكتلنا!..

- من الذي سيقتلنا هل أنتِ حلمانة؟.

لم تجب، فبحثت سريعاً بعيني عن أحد قد يهاجمني معهما لم

أر ثالثاً معنا، ربما هرب قبل مجيئي لم تكن تنصت لي لمست يدها انتفضت حتى أخافتني، فصمت أنا الأخرى، ووقفت خلفها أختبئ.. من الذي أخافها ولا أراه؟ هي تعرف أني قربها، لكن يبدو أنها فقدت النطق، زوجة العجوز ترتجف وهي تهزئ بما ظننته تحصيناً أو ربما تحفظ أوراداً تقوم بترديدها.. تنصتُ بانتباه شديد لأسمع ما تقول هي تهمهم ولا تقول كلاماً محدداً أو مفهوماً، وتشير إلى أحد ما في مخيلتها لا أراه ربما سارع بالابتعاد حين علا صراخها عمتي: "ماذا بك؟".

لم تستمع إليّ فكررت: "عمتي ماذا بك؟ هل من خطب؟".

انتقل إليّ هلعها، أسمع صوت ضربات قلبي عالية.. أضع يديّ لأوقف انتفاضته تعلو أكثر، أرى الحائط أمامي.. وحش يحمل سيف أو معول لا أعرف أو لا أستطيع رويته بوضوح.. من شدة العتمة تحولت الحيطان خلفي إلى أناس يهمّون بمهاجمتنا.. يبدو أن المرأة قد جنّت تماماً وستقودني معها إلى ذلك، أصلاً كانت بنصف عقل الآن ذهب كله! تقدمت ناحية الباب على أطراف أصابعي، ونظرت في اتجاه المكان الذي تشير إليه.. لا وجود لشيءٍ بعينه ولا يوجد أحد أو حتى حيوان ليلي أتى متلصصاً بحثاً عن فريسة، لا أثر لشيء ملفت حتى الوحوش اختفت مع إضاءتي للمصباح الوضع.. طبيعي باب الشارع مغلق.. الحائط القصير بيننا والزريبة قائم في مكانه لم يتحرك عمي في فراشه يغط في نوم عميق كعادته يصل إلى صوت شخيره المزعج، فسألتها وأنا أرتعش من الخوف: ماذا حدث؟ هل دخل عليكم لص؟

تلفتت يمنة ويسرى ثم همست: "أريتو كان حرامي! لمحت ظل الراجل سيد الزريبة يحمل سكيناً، يحوم حول زوجي، يريد ذبحه.."

"بسم الله الرحمن الرحيم رأيت ظله أو تخيلته؟".

"لماذا يذبح الرجل زوجك العجوز المسكين هو في حاله تماماً ما عندو شغلة بزول وهو يسكن منذ حياة أمي لم أسمع أنه لص؟!". نعم هو لص حقير لكنه لا يسرق أحداً ولا يدخل بيوتاً لسرقة الأموال والمتاع! يسرق نظرات لأجساد النساء بل يسرق حتى أجسادهن ويداعبها في غياب أزواجهن.. إن وجد فرصة يسرق عقول الشباب ببيع الحشيش جهاراً نهاراً.. لا تنظري لي هكذا فاغرة فمك. أخبرتك بما كانت تقوله أمي عنه". وقاطعت استرسالي في الحديث لتضيف:

"لا لا رأيته بعيني هاتين اللتين سيأكلهما الدود".. أيقنت أنها كانت تحلم.. فماذا يريد سيد الزريبة من العجوز الخرف ليقتله؟! لا يملك من المال شيئاً ولا قليل متاع ليطمع به حتى أن رجليه تكادان لا تحملانه من شدة عجزهما، وإن أراد قتله يملك من القوة الجسدية ما يمكنه من قتله ودون لمسه يقوم.. بدفعه فقط ليسقط ميتاً من الخوف!! خرفت العجوز تماماً وعليّ تحمل ذلك أيضاً قلت بضجر..

"عمتي اذهبي للنوم.. الصباح رباح وأنا ما بقدر أبيت براي تاني أرح أرقدي معاي"..

"لالا انتي أرقدي هنا عمك ما بصحى تاني للصباح كان صحا

لقاني ما في يقول متفقين مع سيد الزيبة على غدرو أمانة ما شكاك!".

ترددت كثيراً قبل الموافقة.. زوجها له لسان حاد يقصد أن يقتلني بكلماته الجارحة وتعليقاته اللاذعة وأحياناً البذيئة يومياً، بل كلما رآني أمامه لم يكن لي مفر من الصمت والإذعان، ولا أعرف أحداً آخر لألجأ إليه في هذه الليلة المظلمة والوقت المتأخر نسبياً.. نظرت إلى الهاتف، وجدت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف، يبدو أنه ميقات دخول اللصوص إلى البيوت! فتوكلت على الله وتمددت قربها في فرشها بعد تأكيدها أنه لن يصحو قبل أذان الفجر، وإن انفجرت قنبلة قرب أذنيه. حاولت ترديد آيات لطمأنة نفسي، اكتشفت أني لا أحفظ منها شيئاً.. حتى سورة الفاتحة أحفظ بعضاً منها ولا أتذكر آخرها لطالما عاقبتني معلمة القرآن لعدم حفظي، رغم ذلك لم أهتم.. ليتني عدت إلى تلك الأيام واستمعت للمعلمات! اكتفيت بتريد الدعاء "يارب احفظني أنت عارف أنا ما عندي زول" علّ النوم يغلبني مرة أخرى..

تذكرت أن العجوز وسيد الزريبة اشتبكا قبل فترة من الزمن بسبب إحضار سيد الزريبة أحد أقربائه للإقامة معه وجلبه (قِدرة) فول أمام باب منزلي مباشرة، وبدأ في بيعه. اشتد صراخهما إلى أن كاد يفضي إلى الاشتباك، لكن بتدخل الجيران تراجع سيد الزريبة عن مكان وضع القدرة! يبدو هذا سبباً مقبولاً للهجوم عليهما ربما أراد إخافتهما ليخرجا من المنزل.. يطمع في المنزل لسبب لا أعرفه ربما أراد إحضار ابنته وابنيها

للإقامة قربه بعد القبض على زوجها وإيداعه السجن، لم يقل لأحد، لكن عرفت.. سمعت حديثه في الهاتف مع من أخبره دون أن يراني، بالطبع.

إحساس الدفء وأنا أختبئ خلفها أشعرني بالحنين إليها في بعدها عني، فبكيتُ بصمت.. نعم أمي لأول مرة يضمني أحد إليه بعد وفاتها.. كانت العجوز ترتعد من الخوف طمأنتها بوضع يدي على كتفها.. حاولت طمأنتها بدلاً عن أن تفعل هي، كنت أضع رأسي في صدرها وأنام لأجد نفسي في مهدي يدثرني ثوبها الهزاز لا زلت أحتفظ به للآن، لم أغسله لتظل رائحة روحها به.. لا أنام إلا إذا وضعته بجانب وسادتي، أستكثره في الغطاء خوفاً عليه من التلف والتمزق، فأكتفي برائحة أمي فيه مجرد إحساس الحنين إليها أضعه على وجهي.. تقودني للنوم.. علّي أراها في الحلم، غفوت لتوقظني حركة في الغرفة المظلمة والعجوزان يغطان في سبات عميق، تكومت حولها أكثر حتى يحسبنا الرائي فرداً من شدة التصاقي بها يرتجف جسدانا بشدة.. قد تكشف للداخل ادعاءها النوم.. أغمضت عينيّ بقوة حتى تأكدت من دخوله وابتعاد مصباحه عن جهتي.. فتحت عيني الواحدة علّي أراه يحمل الرجل مصباحاً صغيراً ويجول ببصرة أنحاء الحجرة باحثاً عن شيء وما إن استدار اتجاهنا حتى أغمضت عيني خوفاً من أذيته أن لمحني أنظر إليه وبخاطري سؤال ممزوج بخوف: عمَّ يبحث اللص؟ لا يملك العجوزان مالاً بل يعتمدان علي والكل يعلم ذلك، لكن أسكنهما أخي قربي ليرافقاني في غيابه! اقترب

مـن مخـدع عمـي، فرأيـت وجهـه بوضـوح.. نعـم سـيد الزريبـة، لم تكـن عمتـي تحلـم لا يحمـل سـكيناً، بـل مصباحـاً كهربائيـاً صغـيراً وفأسـاً يسـتخدمه في تكسـير الحطـب في الغالـب لا يريـد الرجـل ذبحـه، بـل ربمـا أراد تهشـيم رأسـه وفصـل جسـده بالفـاس بـدلاً عـن الذبـح.. بـدأ يبحـث عـن أوراق يخفيهـا العجـوز بـين دفتـي مغلـف جلـدي سـميك أزرق اللـون يضعـه عمـي أسـفل مهـده في حقيبـة صغـيرة سـوداء مهترئـة أخـرج في الأول كتابـاً يحملـه عمـي منـذ رأيتـه ويودعـه الحقيبـة عندمـا ينـام.. تقلـب العجـوز إثـر لسـعة باعـوض، فخـرج في خطـوة واحـدة كـما دخـل، تسـلل خارجـاً تركنـي في حيرتنـي وسـؤال: عـمَّ يبحـث بـين أوراق هذيـن العجوزيـن المخرفـين.. لا أعـرف متـى نمـت، صحـوت عـلى صراخ العجـوز: "يـا بـت قومـي المنومـك في نصنـا شـنو؟".

لم أنهـض مبـاشرة، فقـد بللتنـي ومـلأت ملابـسي برائحـة بولهـا المقـرف، فاسـتحيت أن أنهـض سريعـاً أمامـه، فيتهمنـي بـأني خرقـاء تتبـول عـلى فراشـها ليـلاً، في كل مـرة يتنمـر عـلي، أقـول لنفـسي سـأطرده أول مـا يعـود أخـي مـن اليمـن، وأنـا في حـيرة تامـة، كيـف سـأنهض مـع ادعـاء العجـوز للنـوم، حتـى وإنهـا تشـخر وجفنهـا ترمـش كاذبـة حقـيرة!

يعـاود سـؤال: "يـا بـت يـا تهـاني انجـري عـلى بيتـك شـنو مقعـدك في نصنا؟".

اندهشـت مـن سـؤاله ولم أرد عليـه حملتنـي رجـلاي بصعوبـة بالغـة إلى بيتـي، أغلقـت بـاب حجـرتي عـلي بقـوة وكأني أطـرده مـن

يومي التعيس سريعاً، بدلت ملابسي وتمددت في محاولة يائسة للنوم مرة أخرى، فتقلبت انتظاراً للصباح وطلوع الشمس، ثم نهضت متكاسلة، يدي اليسرى ترتعش بحركة لا إرادية، ربما لإحساسي بعدم الأمان يحدث معي ذلك. ذلك النهار تحاشيت الحديث معهما أو العبور إلى بيتهما مرة أخرى.. نعتني العجوز بعديمة الحياء، وأنا أخرج بعد المغرب لانتظار صديق أخي أمام المنزل.. تلك المسافة كانت متنفسي الوحيد من حصار العجوز يشغل نفسه بمتابعتي وقياس خطواتي، ومع من تحدثت، وهو لا يعرف ما يحدث داخل غرفة نومه ويشخر مجندلاً كالفيل، كيف ينام كل هذا الوقت ولا يصحو أبداً إلا حين يأتي أوان استيقاظه من الفراش؟ هل يدعي هو الآخر النوم كزوجته أم أنه فعلاً يغط في نوم عميق ثقيل؟ لا أظن حتى الأحلام تفكر أن تزوره، فإن زارته لن تخرج هي الأخرى، ابتسمت على خاطرتي تلك، مؤكد سأصاب بلوثة العقل مثلهما قريباً.. كيف وجده أخي وأتى به لحمايتي، لا يتمكن من حماية نفسه، كيف يستطيع حمايتنا أنا وزوجته؟ أخيراً أتى صديق أخي يحمل اللبن ابتسم عند رويتي ليقول: تأخرت؟ الأيام الجاية ما عارف اللبن يصلك كيف، عندنا استعداد، لكن ما تشيلي هم، بخلي ولدي مجتبى يجي يشيلو ويغشيك حقك، فرحت من مجيئه على غير العادة كان انتظاري له لجلب اللبن إليّ في طريقه لمنزله، عادة بعد سفر أخي أو تكليف، كما يقول العجوز، لكن يفرحني أنه من رائحة أخي، وأن أحداً ما يهتم لأمري وأصبت باليأس الشديد من خبر الاستعداد،

ذلك يعني أنه قد لا يأتي لأيام إلى البيت. كان يصيبني الملل أحياناً وحارسي العجوز يقف متلصصاً خلف الباب وأنا أجلس أمامه أملاً في القبض علي بأي ذنب. يجدني في انتظاره يسأل عن أحوال اليوم ثم يعطيني اللبن والأخبار الجيدة عن صحة أخي ليواصل بعدها إلى بيته، اكتشفت بعد ذلك أن جلها تأليف منه، وأن الجنود لا يعرفون عن أحوال الآخرين في المناطق البعيدة إلا متفرقات إذا حدث موت لأفراد في الوحدة يصل خبر موتهم دون جثامين، فيترك للقيادة اختيار الوقت المناسب لإخبار أهلهم وبعض الأسر لا تعرف بوفاة ابنها إلا بعد إيقاف الراتب وانقطاع خبره.. يخبرني العجوز الحقير بكل ذلك بفرح.. من يعرف كل شيء، كنت أجلس على (اللستك) كعادتي منذ مغادرة أخي أتفرج في الشارع، فيقدم لي الجيران تحيات مقتضبة جافة، لكن يمنعون بناتهن من الجلوس إليّ، فكنت أخرج أجد بنات زينب الأخريات يجلسن أمام منزلهن حتى لا تهتم إحداهن بالسلام عليّ.. عدا ثناء، كانت تحيي بصوت عالٍ.. "تهاني ازيك" ولا تنتظر لتسمع ردي.. قصيرة وجميلة.. يلعبن الليدو عبر تاب كبير يضعنه في المفرش وتتحلق حوله الأربع.. تلبس فستاناً قصيراً لا يتناسب وعمرها، وفيزون يكشف جمال أرجلها واستقامتهما.. وجهها عادي.. أخواتها أجمل منها لها صدر كبير يبرز للأمام رافعاً الفستان القصير أصلاً إلى الأعلى قليلاً. ويظهر ثدييها كحبتي الجوافة في شكلهما وتجدل ضفيرتيها بعناية تامة.. تبدو الجلسات بريئة للعابرين حتى أنا لولا خبرتي في السابق عن إخفاء أشيائي عن معلماتي

والتلميـذات والجميـع يعلمهـا لاحقـاً، فبـين الفضيحـة والسـترة شـعرة، كـما تقـول أمـي.. انتبهـت لعـوض ولـد الحلـب يمـر إلى بيته عـبر شـارعنا كان منزلهـم الرابـع الناصيـة المقابلـة لبيتنـا أقـرب أن يصـل لبيتـه بالشـارع الآخـر تنزلـه الحافـلات مبـاشرة أمامـه، لكـن ينـزل ثـم يـأتي ملتفـاً ليصـل بيتـه عـبر شـارع بيتنـا يـرد عليهـن السـلام ويتجـاوزني رغـم مـروره ببيتـي أولاً، لهـ جسـد ريـاضي جميـل.. هـو الآخـر يشـبه الممثلـين الأتـراك.. مفتـول العضـلات وشـعر صـدره كثيـف دائمـاً مـا يـترك الـزرار مفتوحـاً.. في مـرة لمحته يفتحـه عنـد اقترابـه مـن منـزل الفتيـات كأنـه يتعمـد إغراءهـن، يلبـس سلسـلة ذهـب. يحييهـن، فـترد ثنـاء دون أن يتحـدث معهـا. تدريجيـاً تغـيّر الأمـر، صـارت ثنـاء تجلـس بكامـل زينتهـا، تحمـل ابـن رجـاء أختهـا، ليقـف عـوض يعطـي الطفـل الحلويـات ويداعبه قاصـداً لمـس صـدر ثنـاء، وهـو ينظـر لأخواتهـا ليتأكـد أن إحداهـن لم تـر شـيئاً ويـدس في يدهـا شـيئاً أول الأمـر تخيلتـه يمسـك يدهـا، لكـن لاحقـاً عرفـت أنـه يـدس ورقـة بعـد ابتعـاده تنظـر إليهـا سريعـاً ثـم تضعهـا في فمهـا وتمضغهـا ثـم تبصـق في الأرض وكأنهـا تقصـدني بذلـك.. أختهـا الصغـيرة أخـبرت **أمهـا** بفعلهـا لتـأتي إليّ معتـذرة "معليـش يـا بتـي امسـحيها لي في وشي".. نظـرت باتجاهها، فواجهتنـي بنظـرة وهـزة رأس فيهـما رجـاء بـأن لا أفضـح سرهـا، فصمـت، قلـت هـي لا تقصـدني كانـت تمضـغ شـيئاً ربمـا ورقـة وبزغتهـا أعـادت أمهـا النظـر إليهـا، فقالـت لبانـة بخـور أكلتهـا ورميتهـا ممنـوع أكلـه! في الغالـب يتفقـان عـلى اللقـاء بعيـداً عـن الحـي، أضحـك مـن مراهقتهـما تلـك لينتهـرني العجـوز "اللـبن جا؟"

أدخل حاملة ماعون اللبن وخيبتي، أحببت مشاهدة مظاهر بداية علاقتهما ليتنا كنا صديقتين لأخبرها عن كيف تحافظ عليه.

أمام المنزل ثلاثة لساتك وضعها أخواي قائمة بعد أن حفرا عميقاً لتثبيتها، كانا يجتمعان بأصدقائهما فيها، وظلت في مكانها بعد رحيلهما بسنين، يتخذها شباب الحلة وكراً للموانسة والشراب وأحياناً تدخين البنقو، إلى أن اقتلعت لحرقها لتعطيل قوات الأمن وشرطة مكافحة الشغب وعرقلة تقدمها داخل الحي إبان اندلاع المظاهرات في أنحاء متفرقة من البلد بسبب انعدام الخبز والمواصلات أولاً، ثم استمرت لشهور متتالية حتى بعد وفرتهما أعاد الشباب اللساتك كما كانت، لكن فقدت نكهة أخويّ، خاصة معاوية زرع فاصل شجري بين اللساتك وباب الشارع.. ماتت بعد دهسها بالأرجل سألته عن أخي وإن كانت هناك أخبار عنه.

"لالا، لكن كويسين الحمد لله مافي زول مات.. المرتبات جات.. بكرة تعالي اصرفي ما تنسي شيلي معاك بطاقتك.. الصراف اتغير.. عشان ما يتجرجر معاك.. بتلقيني راجيك تعالي بدري لكن و..". فقاطعته "أمس حصل شيء غريب هنا في البيت"..

"ماذا حدث؟"

أخبرته بما حدث وخوفي الشديد من أن يأتي الرجل إليّ مرة ثانية باحثاً عما أدخله حجرة العجوزين ثم بيتي؟ بأن الاهتمام الشديد على صديق أخي وهمَّ بالذهاب والتحدث

إلى الرجـل إلا أني أوقفتـه قائلـة: "هـو لا يعـرف أننـا رأيناه قـد يغـدر بنـا إن عـرف منـك الآن.."

"أرح بيتي مع أولادي لمن نشوف الراجل مالو.."

"والعجوزين؟!"

"اتركيهما، ماذا سيحدث لها"..

"لا يطاوعنـي قلبـي عـلى الهـرب مـن بيتـي، وهـما ضيفـي بـأي حـال"

"هـما مسـتأجران وبتـمام عافيتهـما دعيهـما جانبـاً الآن وفكـري فقـط في نفسـك"، لم أذهـب معـه رغـم خوفي الشـديد تلك الأمسـية وعدتـه باتصـالي بـه متـى مـا شـعرت بـشيء خـلال الليـل، وإن عـليّ تـرك هاتفـي مفتوحـاً.. اسـتبعد محاولتـه مـرة أخـرى خـلال الليلـة ربمـا يـأتي في الأيـام القادمـة، لكـن أشـك أنـه ينـط الليلـة، كان بيتـه صغـيراً جـداً وأسرتـه محـدودة وتكرهنـي زوجتـه رغـم أنهـا تحـاول ألا تظهـر مشـاعرها لي، لكـن عرفـت مـن ابنتـه الصغـيرة في مـرة أخبرتنـي أن أمهـا تنعتنـي بالكريهـة.. أخـبرت أخـي قبـل مغادرتـه، فقـال دعيهـا وشـأنها أنـا مـوصي زوجهـا ولا تحتاجـين لهـا أو لغيرهـا وأوعـى تقـلي أدبـك معاهـا! احترميهـا لخاطـر زوجهـا وليتنـي ذهبـت معـه وافترشـت الأرض، أقنعـت العجـوز أن لا شيء سـيحدث بـإذن سـيدي الحسـن، فواصـل طريقـه إلى بيتـه بعـد تـردد كبـير..

دخلـت بعـد أن تأكـدت مـن إغـلاق الأبـواب والنوافـذ جيـداً

وتركـت (اللمبـات) في المنـزل مضـاءة وعملـت عـلى تشـغيل التـلاوة في الحجـرة بصـوت عـال، حتـى يظـن الحرامـي إن أتى أني مسـتيقظة. ظللـت مسـتيقظة إلى قـرب موعـد الفجـر، أنظـر إلى الهاتـف وألعـب بالثعبـان فيـه، ونمـت أو غفـوت لأصحـو عـلى حركـة في مقبـض البـاب، ثـم ببـط وتصميـم يفتـح رويـداً رويـداً، محدثـاً صريـراً خافتـاً، عرفـت أنـه سـيد الزريبـة مـن يـده، نعـم لـه يـد مميـزة فيهـا سـتة أصابـع بـدلاً عـن خمسـة يلتصـق الإصبـع السـادس بالبنـصر الصغـير، وكأنـه زوائـد لحميـة، لا عظـم يمسـكها لتقـف منتصبـه كبقيـة الاصابـع، فتضعـف اليـد، يسـتخدم يـده اليـسرى أكـثر مـن اليمنـى في تصفـح الأوراق سريعـاً، مـا يريـد منـي؟ هـل يفكـر في الاعتـداء عـليّ! أنـا جارتـه منـذ حيـاة أمـي، وفـوق ذلـك مسـتأجر لبيتـي كان يقـول لأخـي هـي بتـي مـا بتجيها عوجـة إن شـاء اللـه ووعـده بأخـذ بالـه منـي بوجـود العجوزيـن، لم أرَ منـه في السـابق إلا الخـير والسـؤال الدائـم عـن أحـوال أخـي، وإن كنـت في حاجـة للمسـاعدة، فهـو مسـتعد لتقديمهـا لي لوجـه اللـه تعـالى وحفظـاً لـوده لأمـي رحمـة اللـه عليهـا! لا أظنـه يبحـث عـن المـال، فلـه منـه الكثـير، كـما اعتقـد اشـترى قبـل فـترة بيـت حاجـة آمنـة وأخرجهـا بالقـوة بعـد طلبهـا شـهراً إضافيـاً لأن بيتهم الجديـد لم يكتمـل، لم يلجـأ للشرطـة، فـكان هـو شرطـة لنفسـه ويرفـض الخـروج مـن بيتنـا! ادعيـت النـوم حفظـاً لحيـاتي، دخـل متجـولاً في الغرفـة بحريـة وثقـة مفرطـة، باحثـاً عـن شيء لا أعرفـه.. فتـح خزانـة الملابـس الأولى وأعـاد إغلاقهـا.. انتقـل للثانيـة وأخـرج أوراقـاً كثـيرة تخـص أخـي ومغلـف باهـت اللـون تصفحـه ببـطء

شـديد، ثـم أعـاده إلى مكانـه.. محفظـة نقـودي قـد يسرقهـا، إلا أنـه تجاوزهـا رغـم انتفاخهـا الظاهـر.. لم يهتـم حتـى لوجـودي في الغرفـة ولا لوجـود المـال كان فقـط مواجهـاً لي ليتأكـد مـن نومـي وخـرج مسرعـاً بعـد سـماع صـوت العجـوز تنـادي "يـا تهـاني تعـالي حصلينـا!"، كان هـو أسرع منـي في الاسـتجابة لصراخهـا عـبر بـاب الحجـرة خارجـاً في خطـوة واحـدة، تحـول فجـأة لـشيء ضخـم، طـار أول مـا اسـتمع للاسـتغاثة.

خـرج الرجـل، فخرجـت إثـره محاولـة إنقـاذ نفـسي مـن رعبهـا وقلبـي مـن ارتجافـه، لتقـول لي "يـا بتـي نحـن خـلاص تـاني بيتـك مـن باكـر فكينـاه.. إن شـاء اللـه يجـوك نـاس ينفعـوك إتي بـت صغـيرة.. لكـن سـيد الزريبـة دا طمعـان في ورق بيتـك دا بعـد يلقـاه بكتلـك! ويكتلنـا بسـببك".

أخبرتنـي ذلـك بـكل بسـاطة وكأنهـا تخـبرني أمـراً غـير مهـم أو تنتقـم مـن إرهـاب الرجـل لهـا بقولهـا ذلـك يبـدو أنهـما يعرفـان جيـداً نوايـا الرجـل.. سألتهـا: "كيـف عرفتـي أنـه بفتـش عـن أوراق البيـت؟» دار بخلـدي إمكانيـة اشـتراكها معـه، فهدمـت فكـرتي قبـل أن تكـبر..

"سأل جدك عن سندات المنزل أين تركها أخوك؟".

"لم يتركهـا لـديّ بـل أودعهـا خزنـة المحكمـة في حـال وفاتـه أقـوم باسـتلامها حـال بلوغـي العشريـن عامـاً!". تـلفـت لأعـرف أيـن اختبـأ الرجـل بعـد خروجـه مـن بيتـي ليـأتي صوتـه الغليـظ مـن خلـف سـور الزريبـة القصـير: "يـا تهـاني خـير إن شـاء اللـه مالكـم

نعـل مـا جاكـم حرامـي؟!".. الرجـل الشـبح طـار فعـلاً مـن دون أن أراه أو تـراه الجـدة ويسـأل بـكل لـوم أظنـه يقصـد جـس نبـضي هـل صحـوت ورأيتـه فقلـت بضعـف "لا العجـوز تهلـوس غالبـاً عندهـا حمـى لليـوم الثـاني تـصر عـلى دخـول حرامـي عليهـم".

"هل رأته؟"

"لا، تشير لشيء في الهواء فقط"..

ضحـك ضحكـة مجلجلـة ثـم سـمعت وقـع قدميـه مبتعـداً أسرعنـاً إلى المطبـخ، فأحضرنـا بعـض أواني الطبـخ وطشـت الغسـيل ثـم وضعناهـا عـلى آثـار قدميـه لئـلا تمحوهـا الريـاح، ثـم ابتعدنـا إلى داخـل غرفتهـما، لكـن دون أن نسـتلقي بـل جلسـنا القرفصـاء إلى انبـلاج الفجـر جلسـت في أقـرب مـكان للبـاب خوفـاً مـن صيـاح العجـوز إن رآني للمـرة الثانيـة لـو كان لي أهـل، لذهبـت إليهـم أخـي إن شـاء اللـه يرجـع ومـا يمـوت إن عـاد سـأكون البنـت التـي يتمناهـا أختـاً ربمـا يزوجنـي مـن أحـد رفاقـه وأنجـب كثـيراً مـن الأبنـاء، نعـم سـأنجبهم سـتة أو ثمانيـة أو عـشرة إن مـات نصفهـما، يعيـش الآخـرون، يحدثـون أصواتـاً عاليـة كـما يفعـل أولاد حاجـة آمنـة قبـل رحيلهـم، مـا إن يأتي الليـل إلا ونسـمع أصـوات مسـامراتهم وضحكاتهـم، تمنيـت أن أكـون أختهـم الوحيـدة لينتهـرني العجـوز قاطعـاً صـوت عقـلي: "يـا بـت يـا تهـاني مالـك بتتبسـمي بـراك؟ انجـري عـلى بيتـك!".

لا يمكننـي إجبارهـما عـلى السـكن معـي ومرافقتـي، بـل عـليّ الاعتـماد عـلى نفـسي تمامـاً. صبـاح اليـوم التـالي خرجـت لمنـزل

صديـق أخـي قبـل خروجـه للعمـل، فوجدته - كـما قـال - في الراحة أخبرتـه بمـا حـدث معـي، فذهبنـا وفتحنـا بلاغـاً في الشرطـة عنـد سـؤاله لم ينكـر دخولـه البيـت، حتـى لم نحتـج لإزاحـة الأواني التـي غطينـا بهـا علامـات أرجلـه بدعـوى البحـث عـن عـداد الكهربـاء ليمـلأه، فقـد قطعـت ونحـن نيـام، أخـذت عليـه النيابـة تعهـداً بـألا يقـترب منـي، وإن أصابنـي مكـروه سيسـجن وإن لم يكـن لـه ضلـع فيـما أصابنـي.. طمأننـي ذلـك قليـلاً إلا أن صديـق أخـي قـال "العسـاكر ديـل علاقتهـم مـع الراجـل دا كويسـة مـا شـايفة الضحـك معـاه! انتـي أبعـدي منـه قـدر المسـتطاع لمـن أخـوك يجي يحلهـا الحـلال" عـدّل الجـدان عـن قـرار رحيلهـما وظـلا سـاكنين في البيـت يدفعـان الأجـرة شـهراً ويمنعانهـا عنـي شـهراً آخـر، رغـم ذلـك هـما خـير جـار لي، بـل رفـاق يحميـاني مـن نفـسي ويقفـان بينـي وصـوت عقـلي وأوهامـه، انتبهـت زوجتـه لارتعـاش يـدي بعـد دخولـه بيتـي، فسـألتني عنهـا لا أعـرف مـاذا أصابهـا لكنهـا ترتعـش منـذ دخـول سـيد الزريبـة.. أخبرتنـي بـأن أخـبر صديـق أخـي ليأخـذني للطبيـب لاطمـئن.. "الرعشـة غـير طبيعيـة، لكـن لا داعـي للذهـاب، سـتذهب كـما أتـت، كـما وأنـه سـيكون مشـغولاً، فهـم كـما قـال في الاسـتعداد".

سـيد الزريبـة بعـد وصـول خـبر إيـداع الأوراق المحكمـة كـف عـن محـاولات سرقتهـا واسـتمر في دفـع الإيجـار لصديـق أخـي الـذي يأخـذه، فيقـوم بسـداد فاتـورة المـاء والكهربـاء وثمـن رطـلي الحليـب يوميـاً ونصـف كيلـو لحمـة في الأسـبوع والخبـز بعـشرة جنيهـات مـن الفـرن آخـر الشـارع.. كان راتـب أخـي - عـلى قلتـه

في الشهور الأولى حين ذهابي لوحدته لتسلمه - يشعرني بالزهو الكبير وأنا أقبضه وسط جموع العساكر أولئك وأقفز في الشارع عائدة بي رغبة في إخبار الجميع أن أخي عسكري في الجيش، وأنه ذهب ليدافع عن الحرمين - عن بلاد المسلمين - من أعداء الإسلام، كما يقال! إلا أن ذلك الآن تغيّر بعد مضي خمسة أشهر من سفره يقول العجوز إن الحرب بين اليمن والسعودية أنما هي حرب سياسية لا دخل لبيت الله بها، وإن أخي والجنود الآخرين حطب تلك الحرب، نظرت له ليقول هم عساكر وشجعان وصناديد، يذهبون للحرب ويعلمون أن إمكانية عودتهم تساوي إمكانية موتهم، هم موظفون ككل الموظفين الآخرين، لكن عسكريين لا يكفيهم الراتب خمسة أيام في الشهر، فيرون اختيارهم للسفر ليلة القدر ومن لم يتم اختياره يبحث عن الفرصة أمام أبواب الضباط.

"قصدك يفتشوا لواسطة؟".

"نعم هم ببساطتهم يعدونها فرصة ممتازة يعيش بعدها أهلهم حياة هادئة".

"وإن ماتوا؟".

"حتي وإن ماتوا أمّنوا لأهلهم حياة معقولة".

"وأنا؟"

أنت مثل الآخرين لكن كان أفضل ألا يسافر أخوك بحثاً عن المال هو هرب من مشاكله كان عليه مواجهتها..

"ما فهمت، أنا مشكلته؟"

"ليس بالتحديد لكن أنت جزء من المشكلة".

"لكن ما عنده مشكلة قروش.. مرتبه شوية لكن الإيجارات بتجيب قروش كويسة".

بدأت أجلس لأسمع نشرات الأخبار علّي أسمع خبراً عن عودته لكن لا جديد، الجميع يموتون في الحرب، لا حديث عن جنودنا، وعندما سألته أخبرني أن جنودنا هم جنود ضمن التحالف، سألته: "لماذا بدأ التذمر واضحاً وسط الناس في الشارع؟".

"ليس تذمراً هو إحساس القدرة على التعبير بصوت واضح وعال".

"ما فهمت كيف تعبير والناس هدي بتموت!".

"انتي يا تهاني عارفة الناس طلعت مظاهرات ليه؟".

"أيوة كان عيش وجاز مافي".

"لا الموضوع ما عيش ولا صفوف بنزين وجاز" وصمت بقوله "يابت امشي شوفي ليك شغلة غير الأسئلة ما عندك؟ انجري من قدامي". وبدأت أتنصت لنقاشات أولاد الحلة وهم يتجمعون في اللساتك أمام منزلنا بعقل جديد ورغبة في أن أعرف ماذا يدور حولي ولماذا سافر أخي.. قد أسمع حديثاً مختلفاً عن كلامه عن ذهاب أخي لليمن لا يأتون عن ذكره، بل كل ما أسمعه مواعيد وشوارع آمنة وشوارع وهمية

وضحـك وفـرح، أيقنـت أنـه لا يوجـد أحـد سـيهتم بإحسـاسي بالفخـر لأن أخـي يقاتـل في اليمـن، خاصـة بعـد انتشـار قـوات في كل الشـوارع والحـلال التـي كان يملأهـا الجيـش يحملـون العـصي والهـراوات والسـياط يجلـدون دون فـرز بـين صغـير أو كبـير لـه حصانـة ضـد السـياط.. الحصانـة الوحيـدة هـي عـدم الخـروج مـن المنـازل حتـى.. هـذه ليسـت حصانـة كافيـة للأفـراد، فـكان بعضهـم يدخلـون البيـوت عنـوة ويقتـادون الشـباب والبنـات أسرى بـدا النـاس يشـعرون بالغـدر أكـثر والخـوف أقـل.. رأيـت عـودة التظاهـرات لكـن هـذه المـرة ليـلاً أو الفجـر في نفوسـهم غـبن كـما يقـول العجـوز، كيـف تمكـن الجيـش مـن هزيمتهـم وتـرك أمرهـم لقـوات أخـرى لا أعـرف مـاذا يعنـي ذلـك إلا أن الشـعور بالزهـو بـدأ يخفـت قليـلاً.. خاصـة بعـد تلميحـات العجـوز بأننـا السـبب فيـما آل إليـه حـال البلـد! عندمـا قلـت لصديـق أخـي مـا قالـه العجـوز ضحـك بحـسرة قائـلاً: "نحـن جنـود ولـو بيعـرف يعنـي شـنو جنـود مـا بقلـل مـن احـترام الجيـش كلنـا مـا عاجبنـا حـال البلـد لكـن مـا باليـد حيلـة!".

# 2

اسـمي تهـاني اسـم عـادي ليـس بـه ميـزات ولا هـو اسـم مختلـف ولا يطابـق اسـم جـدتي حتـى، إذ لا جـدة لي.. لـدي بطبيعـة الحـال، فـأمـي لم تخـرج مـن بيضـة ولدت مـن رحـم أم إلا أني لم أعرفها، ولا هـي حاولـت ذكرهـا أمامـي كعـادة الأمهـات في لحظـات ضعفهـن يلـذن بذكريـات أمهاتهـن وأحضانهـن كـبرت وأمـي وحيـدة وماتـت وتركتنـي وحيـدة حـالي كحالهـا تمامـاً.. أورثتنـي وضعهـا البـالي. نعـم بـال خـال مـن العاطفـة والمشـاركة.. أتيـت وحيـدة ومـت وحيـدة أو عشـت كالميتـة.

أحـب (توهـو) أكـثر مـن تهـاني الاسـم الـسري الـذي يطلقـه عـليّ معاويـة، هـو الآخـر كان يكـره اسـمي يقـول هـو اسـم لا يناسـب البنـات، فهـن زهـرات جميـلات يجـب أن يحملـن أسـماء جميلـة، يسـكته أخـي الآخـر بقولـه قـل زهـرات شـوكيات أو صبـار بـرّي،

لتقول أمي تهاني اسم جميل في زول بكره اسمو؟ ليقول أخي:

"نعم أمي، تهاني بنتك لا تحبه، فيضحك الكل لتعليقاته القصيرة الذكية".

حتى أخوي يتجادلان حوله بمحبة عني أحسة غريب وتراه أمي عادي.. أكرهه وتحبه.. انتبهت أن عدداً لا بأس به من البنات في المدرسة يحملنه وأغلبهن في الصف السادس يبدو أنه الاسم الشائع ذلك الوقت، تُرى ما سره؟! لا يهم لست وحيدة إذن، يا للحظ العاثر! ماذا إن كان اسمي سجى، ربا أو عزة أو لمياء أو منن!

أي اسم في الغالب يحمل أحلاماً أو آلاماً، وكل أم يقر في نفسها اسم، فتحبل به وتضعه يوم ولادتها وتدونه في شهادة الميلاد بعد موافقة الوالد، هكذا اعتقدت في البدء أو ربما تختار الاسم أولاً ثم تتزوج لتحبل به أو قد لا تتزوج فتحبل، ويصير الجنين مصيبة حلت بها، كيف تتخلص منها بأسرع وقت قبل افتضاح أمرها، فتدخل في مشاكل لا حد لها ولوم من كل حدب وهروب كبير مداه حياة الطفل! وآخر الأمر محاكمة بقانون النظام العام والجلد أمام الجميع، وقد ترغب في ولادته أول علمها به، فتطلب الزواج ولا تحصل عليه، وقد تموت إن حاولت الدفاع عن حق ابنها في العيش، كما حدث لمنال.

في طابور الصباح في أحد الأيام أذكر كالعادة عندما يصير حدثاً خطيراً توقف الإدارة النشاط الصباحي.. تكتفي بنظافة المدرسة وإغلاق المذياع أو فتح أناشيد وطنية حماسية، وفي أحيان نادرة

يتـم فتـح تـلاوة قـرآن، كـن نعـرف الحـال التـي عليهـا المدرسـة مـن شـكل المكرفونـات ومـا يتـم بثـه عبرهـن إلا ذلـك اليـوم، لم نعـرف هـل كان هنـاك حـزن أو زيـارة مسـؤول كبـير مـن المكتـب اسـتبعدنا ذلـك لإيقـاف الإذاعـة، وقفنـا مـن غـير أن يخاطبنـا أحـد، إلى أن حـضرت المديـرة. كان مجـرد عبورهـا كافيـاً ليخلـف حالـة صمـت تـام حتـى نسـمع حفيـف الأشـجار رغـم العـدد المهـول مـن التلميـذات أمـرت تلميـذات الحلقـة الأولى بالانـصراف، واتبعتهـن تلميـذات الصفـوف الرابـع والخامـس، فعرفنـا أن المصيبـة حدثـت مـن تلميـذات أحـد الصفـوف العليـا حتـى الصـف الثامـن ذلـك اليـوم أوقـف معنـا، نعـم يبـدو أن المشـكلة لا تشـبه مـا سـمعناه أو حـدث في السـابق.. ابتـدرت المديـرة الحديـث بـكلام لم نفهـم مقصـده، ولم نحفـظ محتـواه.. مـا فهمتـه أن تلميـذة في الصـف السـابع أو الثامـن قامـت بمصيبـة مـن المصايـب، تـم فصلهـا عقابـاً. تنهـدت الحمـد للـه كنـت الـشر الأكـبر في المدرسـة هـذه المـرة تـم اكتشـاف شـيطان أكـبر منـي كان يومـاً عاصفـاً للـكل لم تـؤد أي مـن المعلـمات حصتهـا انتقـل مكتـب التعليـم للمدرسـة تبعـه المجلـس التربـوي المديـرة لم تصمـت عـلى مـدى سـاعتين أو أكـثر شـتمت وهـددت ثـم توعـدت كل مـا يمكنهـا القيـام بـه فعلتـه أخـيراً تـم تصنيفنـا لمجموعـات، مجموعـة جـاءت للقرايـة ودي بنـات خلوقـات مهذبـات بنـات أسر، ومجموعـة (بليـدة) لكـن كافيـة خـيرة شرهـا، والمجموعـة الثالثـة مجموعـة الشـيطان الأكـبر هدفهـن لا في قرايـة ولا تعليـم وجايـات للصعلقـة وقلـة الأدب.. البنـات أصابتهـن هسـتريا وبـكاء لأسـباب مختلفـة بعضهـن خـوف

مـن العقـاب الـذي يـلي الحديـث أو غالبيتهـن قـد يكـن شـعرن بالغـبن، مـاذا حـدث!! لا يعرفـن، لم يتـم التصريـح بمـا حـدث أو مـا هـي الجريمـة بالتحديـد التـي تـم عـلى أساسـها العقـاب إلا أنهـا توعـدت بالفصـل مـن المدرسـة كل مـن تسـول لهـا نفسـها العبـث والتلاعـب والمـشي في درب منـال!

منـال تطـير عيشـتها، همسـت تلميـذة الصـف السـابع بذلـك لتسـمع المقولـة أقـرب المعلـمات إلى الفصـل، فقاطعـت المديـرة هاتفـة: "يـا بـت يـا قليلـة أدب ! منـو قالـت كـدا؟».

صمت تام لينتقل المكرفون مرة أخرى للإدارة.

"العـاوزة تقـل أدبـا تقعـد في بيتهـم، مفهـوم؟!". لنصيـح كلنـا: "مفهـوم يـا أسـتاذة".

عدنـا لصفوفنـا تتبعنـا كثـير مـن الحـيرة والخـوف والقلـق وقليـل مـن الارتيـاح.. نجونـا مـن العقـاب البـدني لاحقـاً عرفنـا أن (منـال) تلميـذة الصـف السـابع فصلـت لأسـباب أخلاقيـة ثـم بعـد مـضي ثلاثـة أيـام مـن الحـادث، همسـت لي تقـوى أن أمهـا اكتشـفت أنهـا حامـل.

"منو قال ليك؟"

عرفـت ذلـك مـن والدهـا رئيـس المجلـس التربـوي، وهـو يحـكي لأمهـا في وجودهـم.. وهـي تحـكي لنـا بفخـر مـا تعلـم ونجهـل!

انتـشر خـبر موتهـا وسـط مجتمـع المدرسـة بفـترة قصـيرة.. توفيـت في ظـروف غامضـة غالبـاً انتحـرت بالصبغـة اشـتراها لهـا أخوهـا

كـما قالـت تقـوى، فماتـت هـي والولـد.. لم أتعـرف عليهـا ولا أذكـر وجههـا، وقـد لا أكـون التقيتهـا أبـداً، فعـدد البنـات كبـير جـداً والمدرسـة كبـيرة لدرجـة يمكـن ألا تلتقـي تلميـذات الصفـوف العليـا أثنـاء فسـحة الفطـور وهـن يتدافعـن للـشراء مـن المقصـف، وكنـت لا أشـتري فطـوراً مـن المقصـف، مـا قلـل علاقتـي بـه وقيـل إن تغيبهـا عـن المدرسـة كان كثـيراً جـداً، وتـم إرسـال خطابـات لـولي أمرهـا للحضـور للمدرسـة إلا أنـه لم يحـضر ولم يهتـم كـما قالـت المديـرة لـو جـاء مـن أول مـرة كان عـرف بنتـه بتمـشي ويـن وقـدر لحقهـا وحماهـا، لكـن الأهـل يكـون عاوزيـن يرتاحـوا يرسـلوا البنـات المدرسـة مـن غـير علـم بحـال التلميـذة أو مـع مـن تخـرج أو مـن صديقاتهـا ومـا يكـون في اهتـمام، والسـؤال عـما حـدث ويحـدث لبناتهـن داخـل سـور المدرسـة، وقـد يحـدث أن لا يـأتي ولي أمـر تلميـذة لمعرفـة كيـف تسـير بنتـه إلى أن تتخـرج مـن المدرسـة أو تـأتي بمصيبـة يجـبر عـلى إثرهـا مـن المجـيء، وكأن الإدارة أذنبـت حـين طلبـت حضـوره لأمـر يخـص ابنتـه.

كالعـادة في الأمـور الجليلـة التـي تحـدث داخـل المدرسـة يتـم إرسـالنا لمكتـب الإدارة نحـن الأكـثر غيابـاً في دفـتر الغيـاب، أول مـا رأتنـي قادمـة نحوهـا نهضـت مـن خلـف مكتبهـا ارتعشـت وأنـا أتقـدم، انتبهـت لحركتهـا قـد (تكفتنـي) أو تضربنـي برجلهـا أو تجلـدني بالكسـين الأسـود، تلفـت حـولي بحثـاً عـن ملجـأ أن قـررت ضربي، وجـدت أننـا كـثر.. لم أكـن وحـدي الحمـد للـه لم تـزد عـلى قولهـا "شـوفن يـا بنـات أي واحـدة فيكـن ح أديهـا مهلـة بكـرة فقـط تجـي سـايقة ولي أمرهـا في يدهـا وإلا مـا تجـي المدرسـة..

أقول ولي أمر يعني أبوك خالك عمك ما يجيني أخوك صغير مفهوم.. ولّا ما مفهوم؟". سؤالها تأكيدي أكثر من استفساري، عدى ذلك اليوم والهم يعصف بذهني وشردت من أين آتي لها بولي أمر، هل تطلب أمي من سيد الزريبة اصطحابي! لكن الجميع يعرف قصة وفاة أبي فقلت لأمي قالوا نجيب ولي أمرنا وأبوي أو خالي أو عمي، فقالت بغضب: "يعني نمرق ليها أبوك من قبره؟".

اليوم التالي أمرتني بالذهاب وستلحق بي قبل الفطور ترددت هل أدخل أم أنتظرها خارج سور المدرسة.. تقوى (الغبية) أجبرتني على الدخول، فقد رأتني وصرخت بعلو صوتها: تهاني تهاني تعالي..

المدرسة كلها عرفت أني حضرت إن غبت عن نظر الإدارة قد يتم فصلي كمنال، فدخلت قبل أن أضع حقيبتي الثقيلة عن ظهري لحقني صوتها، وهي تهتف باسمي بصوتها الجهور تهاني تعالي.. لم يكن وجود صفنا أمام مكتبها عبثاً، ترى كل ما يحدث داخله لها عينا صقر، بل ترسل عينيها داخل الصفوف وتعودان إليها بكل حركة قمنا بها.. لا تستطيع الإنكار قبل أن تبرر ما قبضته عيناها.. تواجهك بصورة في تلفزيون أمامها بما فعلت.. لا يمكن إنكار أي شيء.. لها قوة ربانية في عينيها لاحقاً عرفت أن القوة الربانية هي كاميرات مراقبة في الصفوف وساحات المدرسة! تم تركيبها لتسهل لها متابعة أي شيء داخل المدرسة. ولأنها لا تحب النميمة، فليس لها ألفة سرية لنقل خبر التلميذات، ولا معلمة تخبرها ماذا قالت التلميذات.. لم

تكـن بحاجـة لـكل ذلـك، فهـي قويـة حـادة ذكيـة وحنينـة أحيانـاً إلا أنهـا تكـره البنـات، لا تكرههـن، بـل تسـتمتع برويتهـن يرتجفـن أمامهـا مذعـورات مـما قـد يحـدث لهـن، هـل سـتقوم بركلهـن أم سـتكتفي فقـط بالشـتم؟ وهـي تـأكل أو تـشرب في كـوب الشـاي مـن غـير سـكر، هـل سـيتغير مزاجهـا فجـأة أثنـاء غضبهـا، فترسـل إحدانـا بدفـتر الاجتماعـات لتوقيعـه مـن قبـل المعلـمات بالعلـم؟

تمهلـت في سـيري إليهـا.. تخيلـت نفـسي أحمـل حقيبتـي عائـدة إلى البيـت وأمـي غائبـة.. يلاقينـي أخـي مسـتفسراً بعـدم اهتـمام: "مالـك؟". وقبـل أن أخـبره بسـبب طـردي يحمـل سـير الوصلـة يجلـدني بهـا ويصيـح مهـدداً "سـأقتلك في يـوم مـا انتـي بـت حـرام ولّا شـنو؟ شـنو الفـوضى البتعمـلي فيهـا دي؟ بليـدة، لـو مـا عـاوزة المدرسـة انجـري اقعـدي في البيـت، لكـن إيـاك والصياعـة!". وأنـا أرتجـف مـن الخـوف لمجـرد فكـرة جـاءت في مخيلتـي قـد تطـردني وأمـوت بسـبب أخـي وإن مـت مـن قـد يبـكي عـلي؟ سـأصير حكايـة تشـبه حكايـة منـال وتـزداد حولهـا الأقاويـل والإشـاعات، وتخـبر البنـات بعضهـن أن أخـي هشـم رأسي بطربيـزة التلفزيـون، لأني لم أنهـض لأحـضر لـه كـوب مـاء! لم تـصرخ، ولم تفعـل مـا جـال بخاطـري سـألت بهـدوء وصـوت حنـون: "أمـك ويـن؟".

قالت بتجي قبل الفطور

خـلاص تعـالي نضفـي لي مكتبـي دا. عنـى ذلـك أني لسـت المعنيـة بالتهديـدات السـابقة، وقصـة طلـب مجـيء ولي أمـري قصـد بهـا شيء آخـر سريعـاً سـتعرفه أمـي حمـدت اللـه في سري بـأن أخـي لم

يوافق على المجيء، بدلاً عنها كان سيضربني لضياع زمنه على لا شيء..

ازدادت العداوة بيني وبين اسمي بعد تلك الحادثة لا أعرف ما دار بين أمي والإدارة، إلا أنها يبدو أنها نبهتها إلى غيابي المتكرر، ومُنع غيابي إلا بأورنيك مرضي أو إذن شفاهي، يعطي لها أو لأخي، شاءت أمي أن تخفي ما دار بينهما بشأني إلى حين عودتي للبيت... الحمد لله نجونا.

عدت ذلك النهار متشوقة لأعرف ما دار بين الإدارة أو ما قالت لها بشأني لم تقل أمي الكثير، وليتها قالت، ولم تقل جملتها (تهاني انتي ما صغيرة أوعك تمرقي مع أولاد ولّا تخلي زول يهبشك سمعتي؟

يهبشني كيف؟ لتنتهرني: بأي طريقة لازم البت ما تخلي راجل يهبشها إلا إذا عاقد عليها، فهمتي؟! البت ما بتجيب ولاد إلا إذا عرست، كلامي دا خلي طوالي في بالك أنا ما دايمة ليك! ادعيت الجهل، لأن أوان تنفيذ وصيتها فات أو كاد أن يمضي. ذلك اليوم تحديداً يظهر عليها الانزعاج الشديد. حاولت منها تخمين ماذا يزعجها لم تفتح باب أسرارها كعادتها، بل أوصدت باب قلقها عليها حتى أخي سألني: ماذا فعلتي لأمك، مزاجها متغيّر على عكس العادي؟ قد تكون المديرة شكت من سوء سلوكي وسيرتي على الألسن، هل نبهت أم أمي بنتها قبل أن تحبل بي أم تركت إلى أن فأجأها حملي ووضعتني ثم ألقت بي في كوشة خلف بيتنا؟

قلت لنفسي ورقة صفراء عليها أربعة أو خمسة توقيعات هي ما تمنح الضوء الأخضر لحمل الأم وولادة الطفل وتتحكم في حياة كاملة يعيشها في العلن، يمنحها مأذون وتصادق عليها المحكمة بعد موافقة الرجل طبعاً، لتنتهرني: "ماذا قلتي؟".

لا شيء عادي، علاقة لم يسبقها زواج تجعل الطفل ابن زنا كيف لأمه أن تولدع؟!

"يا بت نفذ صبري، ماذا تقولين؟!"

أمي أنا فقط أتذمر ما ذنب الطفل؟ أسكت حين عودة أخي ولا يتوقف عقلي عن التفكير.

عني أحب البنات أكثر من الأولاد، أحسهن أكثر عطفاً على العموم وعلي بصفة خاصة، ماذا لو كان أخواي بنات؟ لتغير قدري، ليته تغيّر لربما خلقت في بقعة مختلفة أو لم أخلق، لأن والديّ لم يكونا ليلتقيان بطبيعة الحال إلا يقال إن البنات سكر نبات! إلا أن الله لشيء يعلمه هو أرادني بنتاً، عكس رغباتي وآمالي وخلق أخوي صبيان كما حلمت أمي ! أي أم هي؟! ولدتني على عجل ثم ألقتني في (الكوشة) كيف كانت؟ جميلة أم قبيحة؟! لا أعرف، فجميع الأمهات جميلات إلا أمي وأنا، خلقنا مسخات، لربما أشبه أبي ليس أبي بل الرجل الذي ألقى بي علقة في رحم المرأة التي حملتني، وهنا في بطنها، لم يذهبا سوياً لشراء مستلزمات الولادة، ولا أخبرت أمها عن وجعها، حينها لم يقدم لها عوناً، بل هرب أو هربا لا يهم أنا

لست ناقمة عليهما ولا أحمل تجاههما أدنى شعور بالكره أو الحقد، ولا أعلى حد من الفضول في أن أعرف من هما، لم يكن الأمر مهماً ربما، واسيت نفسي بطريقة من الطرق أو كنت صغيرة حين وجدتني أمي، فلم يحمل قلبي غيرها أماً، على العكس تماماً كنت راضية بنفسي وقدري، كما أظن منحتني الحياة الكثير إلا أن الناس لا يتركوني في حالي، كل منهم ينبش ماضيّ بطريقة تخصه، ولو من باب (الونسة) وقعدات القهوة. الحق أنهما لم ينجباني جميلة ساحرة، لكن مقبولة تامة الخلقة، لاحقاً فقدت عيني فهما لا يحملان إثم فقدها. في واقع الحال لست ناقمة على أحد، فالجميع هرب بالموت أو بالحياة في وقت ما تركت وحيدة تماماً بعد انفضاض الكل من حولي حتى أخي آخر طوق نجاة علقته أمي برقبتي أخذه القدر غدراً أو أنه ذهب للموت بكامل إرادته. ماذا إن كذبت بشأن مشاعري. فالجميع كاذبون يحملون أوجهاً لو كشفت ما بداخلها لفر الناس رعباً! نعم الجميع يكذبون في كل وقت ولأسباب مختلفة، ماذا يضيرني لو تجملت أمام نفسي؟

تكبر كل بنت، فتجد اسما لامعاً مضيئاً قوياً مميزاً أو كما في حالتي تجد تهاني! اسم لا معنى له ولا رنين، اسم تجاري يشبه المناسبات تماماً: تهاني العيد.. تهاني النجاح.. تهاني.. تهاني.. تهاني، وإن كان في الحقيقة لا يعني لي شيئاً غير أنه اسم تعود الناس مناداتي به وارتبط بي، وسبحان الله أكن له كل الكره والحقد حتى فكرت مرة في تغييره إلى ربا حالت دونه قصة عدم وجود الشاهدين، فوقفت عقبة كبرى في طريق

تحقيـق حلمـي، يخـاف غالبيـة النـاس مـن القسـم في المحكمـة أمـام القـاضي الشرعـي، هكـذا قالـت أمـي وصـور لي عقـلي الصغـير صـدق حديثهـا، فقـد تخيلـت حينهـا أن الأمهـات آلهـة لا يكذبـن لاحقـاً عرفـت أن النـاس يهربـون مـن تأكيـد هويـة مـن لا أب لـه وأن الأمهـات فقـط كاذبـات! فتناسـيت مرغمـة القصـة وصاحبتنـي في هواجـسي لاحقـاً حتـى في علاقـاتي بـالأولاد. فيـما بعـد أحببـت اسـم ريـان أكـثر، فمـن لا يعرفنـي أعرفـه بنفـسي ريـان اسـم لـه صـدى محبـب لا يشـبه تهـاني، مـن أول مـن أطلقـه عـلي وكرهتـه بسـببه؟ لا أعـرف، فأنـا مـن غـير ذاكـرة طفولـة كاملـة كبقيـة الأطفـال، كـما أظـن، أو أنهـا معطوبـة لسـبب لا أعـرف الآن.

# 3

أحيانا تمر سريعاً بعقلي أحداث كأنها سبق وحدثت لي في حياة أخرى أو ربما عشتها عندما أخبر أمي تضحك متهمة إياي بالخبل، فلا أعرف، هل هي ذكريات أو أنها أوهام وخيالات؟ كما تقول ماما حبوبة لا أذكر حتى قصة وسبب فقدان عيني اليمين أحس حيالها بفجوة وفراغ تأمين، فقد ولدت كما تقول ماما حبوبة بكامل عافيتي وتمام جسدي إلا أن القدر شاء وليس لي غير الرضا بالمقسوم عندما أسأل عما حدث وقتها واعتبرته قدراً. تهز رأسها بأسى وأسف شديدين، وتسكتني مع وعد بأن أعرف في الوقت المناسب إلا أن وعدها ذهب مع الريح، وطمر سري معها. كانت تكره بل لا تريد الحديث عن الأمر، لربما وجدتني هكذا! لم تزل عني أبداً

لبـس فقـدان عينـي، وإن أكـدت أني ولـدت بخلقـة تامـة.

جسـدي يشـبه إلى حـد مـا البنـات في عمـري أو لا يشـبه، لا يهـم ذلـك كثـيراً نحافتـي لطالمـا كانـت سـبب تذمـري وإن كانـت تطمئننـي بـأني سأسـمن أول مـا أكـبر. أي شيء مـتروك لحـين تقـدم عمـري! شـعري ويـا للعجـب طويـل جـداً وكثيـف حالـك السـواد أحيانـا أجدلـه ضفيرتـين، وفي غالـب الوقـت أمشـطه لفـترات طويلـة، أمـي لا تسـتطيع تمشـيطه كل يـوم، فـأغسـله في فـترات متباعـدة، وفي كثـير مـن الأحيـان يغضبنـي ولا أسـتطيع معـه صـبراً فـأقصـه، لكـن يعانـدني، فينمـو سريعـاً ويصـير أطـول مـن السـابق، وأعـود لقصـة، فينمـو. هـي حـرب صغـيرة بيننـا. فكـرت في إحـدى المـرات في حلاقتـه كأخـي (صلعـة عـلى الزيـرو) قـد ينمـو قصـيراً جـداً وأرتـاح منـه، إلا أن أخـي انتهـرني بقولـه يغطـي عـلى دمامتـك فاتركيـه، فتركتـه، وتوقفـت معـاركي معـه ونشـأت بيننـا علاقـة لا أسـتطيع تسـميتها حـب بـل معايشـة أو قبـول !

أمـي امـرأة كبـيرة السـن مقارنـة بأمهـات قرينـاتي في الدراسـة ويتعمـدن إسـماعي أنهـا حبوبـة. اسـتغرب وأغضـب لنعتهـن لهـا بذلـك وأتعـارك معهـن مدافعـة عنهـا عندمـا أحدثهـا بذلـك، تضحـك قائلـة مـا شـايفة اخوانـك الطـوال ديـل أهـا اسـاليهن عندهـن اخـوان قدرهـم؟ والسـمن بتظهـر الـزول وكأنـه أكـبر، لذلـك دعـي عنـك أحـلام زيـادة وزنـك، اتعلمـي أن في الحيـاة ليـس كل مـا يقـال يـرد عليـه، في النهايـة انتـي حتتعبـي والنـاس مـا بريحـو.. اتعلمـي، كـبري دماغـك منهـم!

كانت تميل للبدانة إلا أنها ليست سمينة لا أعرف كيف! ولا هي نحيفة، كما تقول، يتمركز ثقلها في نصف جسدها الأسفل وكانت تفخر بذلك رغم استغرابي، رجلاها لا تكادان تحملانها وتشعر بالزهو!! متصالحة مع كل شيء، وجودنا في حياتها، بيع الشاي، جنون أخي، هروبي المتكرر من المدرسة. دخول أخي الكبير للجيش، بعد تخليه عن تعاطي البنقو مباشرة، أدخله أحد أصدقائه في الحلة وأخذ أوراقه، فتم قبوله عسكرياً وذهب مباشرة لمعسكر التدريب وبدأ في الترقي حتى وصل إلى رقيب.

اسمي تهاني علي مختار واسم أخي سالم الشيخ مضوي، قد نكون من أبين مختلفين وأمنا واحدة، لربما تزوجت أمي رجلين أو ثلاثة، فنحن ثلاثة إلا أن ذلك لم يحدث فلم تتزوج أمي أحداً! كما تقول الرجل الذي كتب عليها مات قبل أن يكمل مراسم زواجه، فحدت عليه وحرمت على نفسها الرجال بعده، نعم مضى العمر، وهي تبكي رجلاً اكتشفت بعد سنوات طويلة من موته كذبه ونفاقه، كان يعمل في مخازن تتبع لمصنع السكر، يسكن في سكن جماعي للعمال، وهي تعمل في بيع الشاي في الجهة المقابلة للمخزن، يتردد عليها نهاراً لشرب القهوة مع بقية العمال، لاحقاً صار يشرب الشاي والقهوة، بل يرسل إليها لإحضارها في مكتبه، تمكنت من بناء البيت الذي نسكنه من عرقها كما تقول، فقد كان عبارة عن عريشة يحيط بها شجر العشر من كل جهة، وبعض المساكن القليلة متباعدة. اشترت الحوش التاني من قروش الشاي، وكانت المنطقة وقتها عشوائية غير مخططة. عندما أتت الحكومة

لتخطيطها اقتطعت جزءاً منها للشارع، وتم تسجيل المتبقي باسمها حسب رغبة والدها، وتم تعويضها بمبلغ قليل، مكنها من بناء العريشة، وهي مقطوعة من شجرة تماماً، فلا نعرف خالاً أو عماً، ولا من أي الجهات أتي جدي، مات أبوها وتركها وحيدة، لا تعرف لها أهلاً وتردد باستمرار "كان عاوز يخبرني بمن هم أهلي إلا أن الموت كان أسبق".

أتت بنا نحن الثلاثة، بل أحضرت أخوي وأتيت إليها أنا كغمامة لطيفة وهبتها لها الحياة من الرهق لم أفهم الصراحة قولها إلا أنها يبدو أنها تمدحني بذلك!

هو الآخر وحيد لا يعرف أحد كيف وصل به الحال منفياً أميناً لمخزن السكر في بلدة أقل ما توصف به بعيدة لاحقاً تمددت المدينة الكبيرة (كرش الفيل)، وابتعلتها، لا يزوره أحد ولا يسافر كبقية العمال لزيارة أحد عالمه كتاب وحيد دائم الاطلاع فيه، ربما يكمن سره في بطن ذلك الكتاب، فحرص على أخذه معه عندما اختفى، فكما جاء ذهب، من أي مكان من المناطق في السودان الممتد لا يعرف أي من العمال ذلك، ولا من هو. سبق مجيئه خطاب نقل لأمين المخزن السابق، فهرب مسرعاً بأسرته إلى حيث تم نقله، فالبلدة كانت منفى لموظفي الدولة بصورة أو أخرى لا يمكث بها أحد كثيراً في الغالب يرسل لتمضية عامين أو ثلاثة، يمضي الرجل ليله ساهراً ترافقه زجاجة العرقي في الغالب، إلى أن أتى يوم كان بداية الوهم في حياة أمي، كما تقول، وجدته ملقى في شريط السكة حديد فجراً ربما أراد الانتحار، وربما شرب فنام، كما

يقـول العـمال وشـارف قطـر (القمـح) عـلى العبـور، فلـم تجـد حـلاً إلا أن تجـره جـراً شـديداً لثقـل وزنـه، لتتمكـن مـن إخراجـه مـن سـكة القطـر مـا أحـدث أثـراً عميقـاً عـلى أرجلـه لاحقـاً كان إنقاذهـا لـه بدايـة لقصـة حـب تخللهـا كل شيء كانـت حلالـه في الـسر وزبونهـا في العلـن، يأتيهـا عنـد مغيـب الشـمس ويتسـلل خارجـاً عائـداً إلى مـكان عملـه قبـل الفجـر. كانـت علاقـة مرهقـة لهـا، يبعـد عنهـا الهواجـس بالوعـود، وإن عليهـا الصـبر الجميـل لا يبخـل عليهـا بـشيء يمنحهـا كل عواطفـه ويبثهـا هيامـه وينسـيها ألمهـا يـصرف لهـا يوميـاً مخـدراً موضعيـاً كـما تقـول، تفيـق منـه، لتعـود للواقـع، فالجـيران عـلى قلتهـم صـاروا يتهامسـون حولهـا بـل يتجـرأون عليهـا شـتماً ومـراودة، وتـوارت عنهـا نظـرات الاحـترام أو اختفـت، وكـثرت نظـرات الطمـع فيهـا، كان قوامهـا محـركاً للرجـال للمحاولـة منهـا آملـين في الحصـول عليهـا مجانـاً أو بأبخـس الأثمـان، لذلـك منـع الرجـال نسـاءهم عودتهـا لئـلا يعرفـن منهـا محاولاتهـم المسـتمرة لإغوائهـا، فانحـسرت علاقتهـا بـكل جيرانهـا، وخافـت النسـوة منهـا عـلى رجالهـن فتوقفـن عـن زيارتهـا ومباشرتهـا. عدنهـا حـين ألم بهـا مـرض أقعدهـا طويـلاً ليتأكـدن مـن زوال الخطـر عـن رجالهـن. تحملـت كل ذلـك، هـي حلالـه بـأي حـال، كانـت تتوقـع منـه إعلانـاً صغـيراً أو ورقـة صغـيرة بـدلاً عـن تلـك التـي قـام بكتابتهـا وتسـليمها لهـا، ترفعهـا في وجـه الجـيران إلا أنـه كان ماهـلاً. كل يـوم يخبرهـا قصـة مختلفـة تنسـيها الورقـة، إلى أن اختفـى تمامـاً، نعـم تبخـر الرجـل، فلـم يعـرف أحـد هـل مـات أو قتـل. بعـد ذلـك بسـنوات أتى شـاب في كامـل البهـاء كـما

تقـول للبحـث عنـه، فأخبرهـا أنـه ابنـه البكـر ولـه أربـع شـقيقات (مريـم وماجـدة ومنـال ومنـى)، مـات جـده وهـو يسـأل عنـه، لا يعـرف عـن أبيـه كثيراً، أوصـاه جـده أن يبحـث عنـه ليشـهد زواج ابنتـه، فقـد خـرج غاضبـاً مـن لا شيء أو أنـه هـرب مـن مسـؤولية البنـات، فحملهـا عنـه. يبحثـون عنـه لأن ابنتـه الكـبرى في طريقهـا للـزواج. يسـأل عنـه أهـل العريـس ولا يعرفـون مـاذا يخبرونـه، أخبرهـا الصبـي أنـه تعـب مـن البحـث. آخـر مـكان قـرر زيارتـه مـكان عملـه هنـا، فهـو في حالـة بحـث اسـتمرت أكـثر مـن ثلاثـة أعـوام، فلـم تنكـر معرفتهـا بـه واختفـاءه المريـب بطبيعـة الحـال.. صمتـت عـن علاقتهـا بـه إلى الأبـد.. ووهبـت نفسـها لتربيتنـا.

# 4

في واقـع الأمـر لا أعـرف مـن أبي الحقيقـي أو أمـي الحقيقيـة، صحيح وعيـت عـلى الدنيـا والحاجـة حبوبـة هـي أمـي لم تخـبرني أني لسـت ابنتهـا، إلا أني عرفـت، ففـي مجتمعنـا لابـد أن ينتـشر الـسر في يـوم مـا. كانـت قليلـة البـوح عـن كل مـا يتعلـق بي، أمـا أبي فقيـل إنـه تـوفي قبـل ولادتي، فيـما بعـد عرفـت أنـه لا يوجـد أب أساسـاً، فولـدت هكـذا، كـما ولـد عيـسى بـلا أب وكـبر وصـار نبيـاً، كـما تقـول معلمتـي وكـبرت وصرت نسـياً. وأنـا أحـكي لـك يصـل إليّ إحسـاس بتهكمـك عـلى كلامـي، لسـت مـلاكاً أعـرف، كـما وأني لسـت شـيطاناً كـما تصفنـي نظرتـك. أنـا بـشر مـن جنس بنـي آدم،

لست ملاكاً بطبيعة الحال.. زولة جواي خير زي ما جواي شر! يغلب أحدهما الآخر حسب الحالة والظروف، وُضع داخلي قابيل وهابيل في نفس واحدة، نعم تصفني معلمتي بكل تلك الأوصاف وأكثر قليلاً.

أسكن في بيتنا الصغير أو الكبير لا يهم، فعلى قدر اتساعه في وقت وجود أمي وأخوي بقدر ضيقه في وقت آخر كان يسعنا حين كنا أربعة، وضاق حين صرت وحدي، دعني أصفه لك، مكون من حجرتين وصالة صغيرة تربط بينهما ومطبخ عبارة عن (حصير) وغرفة منفصلة بناها لاحقاً أخي، وزقاق صغير محاذ للشارع، منه تبدلت حياتي أو خرجت الحقيقة للعلن، وباحة كبيرة تستخدم أمي جزءاً منها كمخزن ونصفها يستأجره مالك زريبة الحطب، فهو مصدر رزقنا الوحيد قبل التحاق أخي بالجيش ومنع أمي من بيع الشاي في السوق. البيت ورثته أمي عن أبيها، فيما بعد انتقلت ملكيته لنا أنا وأخي مناصفة، ولذلك قصة طويله.

لنا حجرة كانت مخصصة نهاراً للضيوف وليلاً لمبيت أخوي فيها قبل أن يتشرد أخي الآخر (معاوية) ويصيبه الجنون التام، فيتخذ الشارع مأوى له، بدون أسباب، لا، بل لأسباب وقصص يتداولها الناس حولي أو حولنا ويموت آخر الأمر تحت عجلة شاحنة مسرعة وتوضع جثته في مشرحة المستشفى مدة طويلة ثم يقوم عساكر الشرطة بدفنه، عرفنا ذلك صدفة، إذ وجد علي ابن حاجة آمنة الجيران صورة الجثمان في الفيس بوك وعند ذهابه مع شباب الحي لرويتة والتأكد منه وجدوا

أن الخبر والصورة صحيحان مضى عليهما أكثر من ثلاثة أشهر، الشرطة لم تعثر على سائق الشاحنة، فدونت البلاغ ضد شاحنة مجهولة اللوحات، وجدته دورية للشرطة في طواف عادي ملقى على طرف الشارع، نعم أحد ما أزاحه عن الشارع، قد يكون في وقتها حياً، فرحلت روحه رخيصة مسكين أخي كان أنجب طالب في مدرسته رغم عدم استقراره النفسي، كما يتحدث أصدقاؤه أولاد الحلة، لم يتراجع للثاني، كان أول الفصل وأول الشهادة في الصف الثامن، وأول مدرسته في الشهادة الثانوية، منحه الله عقلاً كبيراً أخبرنا جارنا أن وفاته أحدثت ضجة كبيرة في وسائط التواصل الاجتماعي، وانبرت جمعيات خيرية لجمع المال لأسرته (نحن)! اندهشنا، إذ لم نعرف ما هي جمعيات التواصل الاجتماعي أو الجمعيات التي انبرت للقصة. تواصل أخي مع صديقه محامٍ فأخبره أنه ستيواصل مع تلك الجمعيات، وقد كان عرف أن أسره أخرى تبنت أخي معاوية ميتاً وتسلمت أموال التبرعات، بل منحت أمه بيتاً في الإسكان الشعبي إلى موت أمي لم نعثر لها على أثر يدلنا على علاقتها بأخي.. مسكين معاوية وإن كان أفضل حالاً منا منح من الوسامة قسطاً وافراً ومن العلم الكثير الكثير، حنين ومرهف، يحبنا بصدق، صفات قل أن تجتمع في شاب، أكثر أهلي اهتماماً بتعليمي، منع أمي من اصطحابي لبيع الشاي بقوله علميها لتصير أقوى في حال متنا وتركناها وحيدة، خلي يكون عندها شهادة، بيع الشاي حلال وأنا فخور أنك بتبيعي الشاي، لكن تهاني لا، حتتعرض عليها وحوش بشرية كثيرة ما

تمش تبيع الشاي دا كلام منتهي، له سر إلهي، فقبل وفاته بوقت طويل تنبأ بما حدث لي لاحقاً لفظته أسرته الحقيقية وأعالته أمي وورثتة أخرى لا تعرف عنه شيئاً.

حياتي وأنا صغيرة تبدو شديدة الغرابة والغموض، وتثار حولها الأكاذيب والفتن والأقاويل، وكثير من الشائعات. دخلت المدرسة وبقيت فيها دون تسجيل إلى أن تركتها وأنا فتاة أو شابة جامحة طموحة بطريقة من الطرق، لم تستخرج لي شهادة مرحلة الأساس. نعم، فأنا غير موجودة في سجلات المدرسة ما يعني أن لا سجل تعليم لي في أي مكان لا محلية ولا وزارة، كما أخبرت المديرة أمي حين طلبت استخراج شهادة أني درست لنهاية الصف السابع، وتركت مقاعد الدراسة من المدرسة النموذجية (درة الإيمان)، كنت أصلاً قليلة الاهتمام بالتعليم، فكنت عبئاً على المدرسة، المعروف عنها التميز والتفوق، عكس أخي معاوية ولو كنت أشبهه لتبنت قصة تعليمي المدارس، فهم يهتمون أكثر بالتلميذ صاحب أعلى تحصيل لم آت بنتيجة تجعلني مميزة لديهن، تصفني المعلمات بالإهمال والاستهتار، تعودت كثرة الذم، فصرت لا أهتم بحديثهن بقدر اهتمامي بأن أكون تلميذة كغيري من البنات. أصحو باكراً جدا لأقوم لأمي ببعض المهام الصغيرة التي تعجز عنها، ككنس الحوش وجمع الأغطية وغسل الأواني وإعداد الفطور. لم تطلب مني ذلك في وقت من الأوقات إلا أنها تخرج باكراً لتلحق عملها، فتعودت على القيام بواجبات المنزل هي تطلب مني الاهتمام بدروسي في كل وقت، وأحياناً تلاحقني بالكتاب أو الحقيبة "يا

بـت امـشي اقـري يـا بـت طـيري احفظـي"، إلا أن لا أحـد موجـود لمسـاعدتي، فوجـدت نفـسي أفتـح الكتـاب ولا أعـرف الكلـمات أحـاول الحـل وتغلبنـي قـراءة بعـض الأعـداد، فنشـأت محبـة لواجبـات المنـزل الصغـيرة وأتقنهـا جيـداً.. المـدرسة في الواقـع كانـت فسـحة مـن العمـل البيتـي. إلى حـد مـا أمـي امـراة طيبـة، بـل بغايـة الطيبـة أدبتنـي وقبلـت بي كـما أنـا، نشـطة أو كثـيرة الحركـة لا أسـتقر في مـكان بسـهولة، رغـم قدميهـا اللتـن يـكادان لا يحملانهـا، تذهـب للمدرسـة مدافعـة عنـي إذا اشـتكيت مـن ظلـم المدرسـات لتجاوزهـن لي في تصويـب الواجبـات المدرسـية، تـداوم عـلى بيـع الشـاي أمـام مخـزن الأسـمنت وكأنهـا في رحلـة انتظـار طويلـة لم تمـل منهـا يومـاً، أنـا يتيمـة، فيتـم تقديـم الفطـور لي مـع مجموعـة مـن الفتيـات مـن فطـور منظمـة تعمـل في إعـداد الوجبـات للتلاميـذ الفقـراء في المـدارس منظمـة طوعيـة، تعتمـد عـلى التبرعـات في تسـيير أعمالهـا، ولهـا مقـر في إحـدى الـدول خارج السـودان في أحـد أيـام أنشـطتها العاديـة رآني شـاب منهـم، فنـاداني أن آتي، ذهبـت إليـه وأنـا أتلفـت خوفـاً إن وجـدوني أتحـدث معـه قـد يتـم فصـلي وعـزلي كمنـال، وقبـل أن اقـترب منـه أكـثر تصـل المعلمـة، فيسـألها "التلميـذة دي عاوزنهـا بنقـدر نقـدم ليهـا خدمة لعينهـا؟». فحسـمت الأمـر "البـت دي عينهـا تـاني مـا بتتعالـج". حـاول معهـا إلا أنهـا حسـمت الأمـر دون سـؤالي، فتراجـع وهـو مركـز بـصره عـليّ إلى أن انتهـى عملهـم، فخرجـوا دون محادثتـي، لاحقـاً عرفـت أن الشـاب تـم اعتقالـه مـن قبـل قـوات الأمـن !

أعـود منتصـف النهـار، أجدهـا قسـمت لي بعـض الطعـام، آكلـه

سريعاً وأقف معها في الحصيرة، نعد الغداء وأحكي لها ما مر على تنصت في اهتمام وتضحك مع ضحكي، وتنتهرني، إذا قصصت ما لا يجب، أخبرتها ما قال الشاب ذلك النهار، قالت:

"أيوة مافي شي بتعمل إلا يسفروك يعملوا ليك عملية تجميل في روسيا قالوا معاوية الله يرحمة جرى ورا الأمر إلا الله ما مهلو عقل راح وتاني ضهب لما مات".

أمي تحبني دون زيف، تسهر إذا مرضت، وإن اضطرت لترك العمل تتركه، تقول "الرزق على الله، أبقي طيبة الشغل ملحوق"، وقد تحملني إذا استلزم الأمر رغم ضعفها ووهنها، نعم ترعاني بكل حب أراه في عينيها وأحسه في أحضانها، أنا أحبها كثيراً رغم تمردي وكثرة مشاكلي. هي ملاذي من الدنيا وأهلها وظلمهما كانت تقف مدافعة عني حتى في مشاجراتنا الصغيرة مع صبيان الحي وإن رأت أحدهم تغلب علي، تخبرني دوماً أن علي أن أكون فتاة صالحة وشجاعة يجب ألا أخاف من الأولاد. إذا ضربني أحدهم، فعلي الدفاع عن نفسي وتجبرني على العودة وأخذ حقي بضربه، تخبرني أنها تريدني فتاة شجاعة لا يرى أحد لي دمعاً عليّ بكبح نفسي وعدم الانسياق وراء عواطفي، وأن الرجال شر مطلق، فعلي ألا أصدق من رجل حديثاً حتى وإن كان أخوي، وتكافيني إذا أعجبها أمر قمت به، تحب أن أجلس تحت قدميها لأقص أظافر رجلها وهي تضحك، تقول "انتي أحسن من أخوك حنينة ما بتجرحيني".. لم أكن أحن عليها من معاوية إلا أنها لا تحب تذكر أنه مات ولن يدخل علينا ضاحكاً مدخراً لبعض مصروفه كانت تنتهره

"يـا ولـد قروشـك مـا أكلتهـا مالـك؟".

"وفرتها".

"نان تقعد جعان"

"لالا فتينـا فـول، لكـن مـا حليـت، فتـسرع مـن إخـراج قطعـة حلـوى ادخرتهـا لـه، كان أجملنـا".

عـدت مـن المدرسـة باكـراً بـدون أسـباب ولأكـون صادقـة هربـت مـن حصـة الإنجليـزي لتتغـير حيـاتي إلى الأبـد بـدون قصـد أصـلاً حتـى وجـودي وحيـاتي كانـت صدفـة، فليـس غريبـاً أن تتغـير حياتي بسـبب هـروبي مـن اختبـار اللغـة الإنجليزيـة، توعدتنـا المعلمـة بالويـل والثبـور وعظائـم الأمـور، وإن مـن ترسـب سـتُعاقب عقابـاً صارمـاً بالإضافـة للجلـد كانـت صادقـة في وعيدهـا، وتقـوم بتنفيـذ مـا تتوعـد بـه حقيقـة. آخـر مـرة جلدتنـا بعـد أن رسـبنا كالعـادة غسـلنا أيدينـا بالمـاء والجـو بـارد جـداً نعـم في الشـتاء لا يدفينـا إلا قمصـان خفيفـة وطـرح باليـة وفنايـل، منحتنـا لهـا المنظمـة بدايـة فصـل الشـتاء، أمـرت بـأن نأتيهـا بالسـوط لتنفيـذ العقـاب، فتسـابقت البنـات في جلبـه، خرجـت أربـع متسـابقات في نفـس التوقيـت لجلبـه يسـتمتعن بجلدنـا ورؤيتنـا نبـكي، يبحـثن إلى أن يجـدن في نهايـة الأمـر سـوطاً وإن لم يجـدن يقطعـن مـن شـجر النيـم الكثـير المـزروع في جنبـات المدرسـة حتـى أنـا أسرع إذا طلبـت منـا معلمـة جلـب السـوط أو إحضـار الطباشـير مـن الصفـوف الأخـرى. السـوط الأول في يـدي شـعرت براحـة يـدي تكـسرت مثـل الزجـاج إلا أنهـا اسـتمرت وكأنهـا لا تسـمعني ولا

تـرى دمعـي ولا تـرى تناثـر مـا بقـي مـن خـوف أمـام كل سـوط تضعـه في يـدي لهـا طاقـة خارقـة تسـتنزفها في عقابنـا، لا تـكل ولا تمـل، ولا تشـعر بالتعـب والمشـقة كالأخريـات، جلـدت نصـف الفصـل تقريبـاً، كنـا سـبعيناً، الناجحـات نصفنـا، أذكـر ذلـك جيـداً لأنـه تـم اسـتدعاء أوليـاء أمورنـا لمعالجـة مسـتوى الصـف في مـادة الإنجليـزي وتقسـيم الفصـل لمجموعتـين، وقعـت في المجموعـة الأولى، مقابـل الحصـة كان أكـبر مـن طاقـة أمـي، إلا أن المديـرة حسـمت الأمـر بـأن الـدرس إجبـاري لاحتيـاج البنـات لـه، مـاذا عنـا؟ لا نسـتطيع أن نـأكل ثـلاث وجبـات كيـف ندخـر للحصـة؟ كل معاشـنا هـو إيجـار نصـف الحـوش وعمـل أمـي، لتقاطعنـي الإدارة انـت بالـذات تسـكتي. "أمـك القـروش البتشـتغلها في يـوم أكـبر مـن مرتباتنـا!" لأواصـل ويـأتي الإيجـار في أول الشـهر، أشـاحت بوجههـا عنـا قائلـة: "مـا عنـدي علاقـة، تجيـبن قـروش الحصـة قبـل الأسـتاذة تشـتغل، تهمـل بيتهـا وشـفعها وتشـتغل مجـان؟!".

الصراحـة كانـت لا تقبـل عـذراً، المهـم هـو دفـع رسـوم الحصـة في مـرة سـابقة سرقـت مـن تقـوى ودفعـت وعوقبـت هـي، كانـت صديقتـي، لكـن كان أبوهـا رئيـس المجلـس التربـوي، فيخفـف عنهـا ذلـك العقـاب، ذلـك اليـوم عوقبـتْ بوجـود والدهـا، ليعـرف أيـن ذهـب المـال الـذي أعطـاه لهـا ولم تسـألني أي منهـن مـن أيـن أتيـت بمبلـغ الـدرس لم أسـلمه كامـلاً بـل نقصـت منـه، وذهبـت غـيرت العملـة مـن مئـات لعـشرات حتـى أبعـد عنـي كل شـبهة، لم يسـألني أحـد وإن شـعرت بالذنـب العميـق والمبلـغ ليـس بالهـين، رغـماً عـن ذلـك لا زلـت أعاقـب كل مـرة إذا رسـبت ولم أفعلهـا

وأنجح ولا مرة! أمي إن أخبرتها تقوم بتدبير القروش إلا أني أكره دفعها، أنا أكره معلمة الإنجليزي، لماذا أدفع لها؟! بعد عودتي أخبرت أمي بكلام المديرة، تناولت مطبقة يدها أخرجت المبلغ كاملاً أمرتني بتسليمه للمعلمة وأنها ستذهب إليها للتأكد ما إن دفعت أم أضعتها كالعادة. بت أفكر في كيف أعيد لتقوى مالها وأعدته كما كان بالتحديد مئات وخمسينات، في فسحة الفطور تمحركت في الخروج وأنا أبحث في حقيبتي عن لا شيء. أريد الاستفراد بحقيبتها سريعاً أخرجت كراس الإنجليزي ووضعت المال بين الجلاد والغلاف وخرجت راضية، فطرت، ومع نهاية فسحة الإفطار تسللت للخارج وعدت إلى البيت، وذهني منشغل بتجهيز سبب عودتي باكراً لأمي، فقلت لنفسي سأخبرها الحقيقة، ستضحك عليّ وتتوعدني إن هربت مرة أخرى بالعقاب إلا أنها والحق يقال لم تفعل بالعكس كانت أحياناً تصطحبني عائدة لمنع العقاب عني إن هربت وطردت وجدت المنزل مغلقاً، فقفزت من الحيطة القصيرة في الزقاق خلف الغرفة الجديدة، النوافذ مشرعة والأبواب مواربة، فقلت يبدو أن أمي في مكان قريب قد تكون عند الجيران. سمعت همهمات وضحكات غريبة تراجعت قليلاً واختبأت ماذا إن كان بعض اللصوص، سيقتلوني بسهولة بجسدي الصغير ذاك، فقد سمعت أخي يحكي لأمي أن لصاً دخل الدكان منتصف النهار وكان مسلحاً بسكين استطاع بها طعن صاحب الدكان حسن طعنات متفرقات إلا أنه لم يمت ولم يُقبض أخافهم سيد الزريبة، فجروا وتواروا عن الأنظار! لصوص يضحكون في بيتنا يا للعجب!

ماذا يسرقون؟ لا شيء يمكن سرقته أو يمكن أن يباع.. بيتنا عبارة عن كراكيب نسميها مجازاً أثاث، عدا حطب وفحم وجوالات يخصان صاحب الزريبة، ويستحيل أن يقربها أحد، فالناس يهابون الرجل نهاراً. لا عجب في ذلك، يمتلك جسداً ضخماً قوياً يحمل جوال الحطب بيد واحدة واليسرى! في بعض الأحيان تأتيه حمولة الحطب والفحم ليلاً، فيقوم بتفريغها وحده من العربة بيده اليسرى، كما تقول أمي "سيد الدكان دا شيطان ربنا مدي قوة في يدو الشمال". تأتي إليه النساء مختلفات الأشكال والأحجام والأنواع، فيختار لهن الحطب المناسب وحين انهماكهن في الشراء يقال إنه يعاكسهن أو هن يحملن الأكياس الطلح يلقي عليهن تعليقات وإيحاءات سفيهة بعبارت مبتزلة وأقوال فاحشة وأفعال خادشة لا يتورع أن يدعو إحداهن إن عجبته للنوم وإن رأى شراً منها عرض عليها مفرش دخان للشراء لا يبالغ في إظهار أدبه، بل لا يهتم برأي أحد به، كان مجرماً يقال إنه من يوزع البنقو، ولا يتم القبض عليه رغم حملات التفتيش المتعاقبة. أمي تقول له من يساعده ويخبره بمواعيد وساعة المداهمات، لا يخشى أحداً، حتى النساء يغازلهن ولا يخاف من عواقب ردات أفعال رجالهن رغم توعد الكثيرين بقتله وذبحه كالشاة.. يستمر في بيع الحطب والفحم والبنقو، كل يوم زايد ثراء ويشتري البيوت حولنا، رافضاً الرحيل من البيت دون أسباب. في مرة عرض عليها مبلغاً كبيراً لتبيعه له، رفضت رغم احتجاج أخي، وقولها "بعد أموت بيعوا ليه، لكن أنا بمرق من هنا لتربتي". فسكت خجلاً.. له عين ضيقة،

كما تقول أمي يطمع في حق الناس ما رضيان بما أعطاه الله له، حقود حسود! بيع الحطب ماهو إلا شغل يستر بي شغله الوسخ شوف عيني دي شفت الجوالات فيها بندقيات! ويأتي بأفضل أنواع الشاف والطلح بكل أنواعه من الرباطاب ونهر عطبرة من الدمازين من الغرب والشرق، والفحم من كل بلد يباع فيها، كما تقول أمي، "رجل بلا أدب ولا ضمير دمر الشفع الله ياخدو يريحنا منه"؟ مع ذلك، كنت أستغرب كره أمي له، فيظهر أنه كريم معنا، فيهدي لها أعواد البخور ممازحاً "بخري بيتك لمن تكبر البنية وتبخرو ليك بالطلح" تغض أمي الطرف عن تلميحاته السمجة ولا تفوت الفرصة دون الدعاء عليه بالموت رغم أنه مستأجر بيتها، تخاف من شره بعد وفاة معاوية أرادت منه البحث عن مكان آخر وأخبرته أنها تريد البنيان في نص الحوش ليتزوج أخي فيه قال ليها يا زولة الساكنين في شايلكم أنا مروق ما بمرق امشي اشكيني! فشكته، لكن إلى وفاتها لم يخرج، فالمحكمة أعطته سبع سنوات أخرى.

تسحبت قليلاً قليلاً، أردت العودة للشارع، لكن قبل ذلك عليّ النظر من يكون اللص ربما أعرفه وماذا سيسرق؟ سأسرع لمناداة سيد الزريبة (الحقار) قد يقبض عليهم هذه المرة، فيقوم بربط أياديهم ويجلدهم إلى أن تقرب أرواحهم للخروج، فيتركهم وقد تابوا عن السرقة! كنت عدوة نفسي بطريقة مدهشة، كما تخبرني معلمتي حين أحكي لها عن مغامرات أخي وجارنا.

وصلت النافذة الخلفية لحجرة الضيوف رفعت رأسي لم أتمكن

مـن النظـر جيـداً إلا أني تبينـت الصـوت، يبـدو وكأنـه أخـي الحمدلله! رفعـت رأسي لأخـرج مـن مخبئـي، فرأيـت فتـاة بغايـة الجـمال بـل امـرأة، مـرة سـيد الـدكان (حسـن)، تراجعـت قليـلاً في مـكاني، كانـت قصـيرة الشـعر سـمينة أو ممتلئـة الجسـم، جميلـة جـداً، مدخنـة ومكبرتـة كبريـت عـروس، كـما تصـف أمـي النسـوان المجيهـات، رأيـت كل ذلـك مـن ثانيـة وأنـا بعـين واحـدة أقـف متلصصـة عـلى حيطـة الزقـاق!

مـا أعـادني للاختبـاء أولاً الخـوف مـن أخـي قـد يضربنـي هـو الآخـر، لا أنكـر آثـار وجودهـا في حجرتنـا، فضـول مـاذا تفعـل مـع أخـي في غيـاب أمـي داخـل الحجـرة موصـدة الأبـواب! رغبـت في رؤيـة مـا يفعـلان، ليتنـي سـمعت صـوت نفـسي حـين أخبرتنـي بـأن عـليّ الرحيـل، أسـكتها، ووقفـت أترقـب بحـذر.

أشـعل السـيجارة وجلـس قربهـا يثرثـران، لا أسـمع مـا يقـولان، لكـن أرى كل شيء، ضحكهـا، وهـي تعـود للخلـف برقبتهـا تعمـد يدهـا ملامسـته، اقترابـه منهـا أولاً ثـم تقبيلهـا قبلـة طويلـة، دون ممانعـة منهـا. انكمـش جسـدي الصغـير وتكـور.. لم أهلـع، عـلى العكـس شـعرت بـدوار وألم شـديد في معـدتي، ووضعـت يـدي عـلى عينـي، فجـأة آلمتنـي بوخـزة، وكان إبـرة أدخلـت بهـا شـعرت بالـدم يخـرج منهـا نظـرت ليـدي وجدتهـا جافـة لا أثـر للدمـاء، وإنمـا دمـوع بيضـاء غزيـرة فيهـا ملوحـة وارتفعـت وتـيرة الألم كـدت أن أصرخ إلا أني لم أفعـل. لم تكـن المـرة الأولى التـي أرى فيهـا رجـلاً يقبـل امـرأة.. رأيـت آخريـن يفعلـون ذلـك، أيـن؟ لا أذكـر تحديـداً، يبـدو أني رأيتـه قبـل ذلـك في المسلسـل الـتركي.. نعـم البطـل يقبـل

حبيبتـه، فقلـت لنفـسي هـي حبيبتـه، لكنهـا زوجـة حسـن سـيد الـدكان يسـتحيل أن تكـون حبيبـة أخـي!

ثـم حضنهـا واسـتلقت معـه عـلى الأرض، أخـذ يعصر جسـدها عصراً وهـي تضحـك وتـصرخ بصـوت خفيـض، وهـو يواصـل فيـما يفعـل، وأنـا نفـسي يصعـد وينـزل معهـما، لا أعـرف مـا يحـدث لي، خيـل لي أني رأيـت ذلـك مـن قبـل لا أعـرف أيـن، إلا أني رأيتـه تمامـاً، قـد يكـون حـدث لي، لكـن أيـن ومتـى جسـدي يولمنـي بـدأت أسـتفرغ أشـعر بظـلام تـام وأحدهـم يخنقنـي بجسـده! مـن مـكان بعيـد في ذاكـرتي يأتينـي صـوت أخـي وهـو يصفعنـي في وجهـي بـكل قوتـه ! يلقـي بي بعيـداً وأمـي تـصرخ لا أنـا الآن أهلـوس تقريبـاً. اختلـط كل شيء وكأني أحـس بجسـد أخـي في جسـدي، حتـى أشـتم رائحـة عرقـة المقرفـة، وأشـتم رائحـة العرقـي في فمـه، خفـت، بـل رُعبـت، ابتعـدت تمامـاً عـن النافـذة، تسـللت عائـدة إلى الشـارع وأنـا متأكـدة مـن أني رأيـت ذلـك مـن قبـل، لم أر بـل حـدث معـي مـا رأيتـه الآن، إلا أن الأمـر كان مرعبـاً أو لعـلي أتخيـل ذلـك، ذلـك النهـار سرت بـلا هـدى، كنـت لا أسـمع صـوت المـارة ولا السـيارات عينـي تولمنـي، وأنـا أبـكي بحرقـة مـا الـذي يبكينـي لا أفهـم نفـسي هـل حـدث لي مـا حـدث لمعاويـة! أجننـت؟! تحسسـت ملابـسي، فوجدتنـي ألبسـها. حذائي هـو الآخـر موجـود، الحمـد للـه، لم أجـن عـلى العـودة، أيـن أنـا لا أعـرف وقفـت لأعـرف إلى أيـن حملتنـي رجـلاي، سرت بـلا هـدى، تعبـت، أردت العـودة، تحسسـت يـدي لا أحمـل نقـوداً، سرت عائـدة لا أشـعر بقدمـي حتـى عـدت إلى البيت متأخـرة كثـيرا، وجـدت البـاب مـن بعيـد مفتوحـاً عـلى مصراعيـه

كالعادة حاولت لملمة نفسي من بعثرتها غير المفهومة ودخلت وأنا لست أنا...

أنا فتاة في ثوب طفلة.. طفلة بمحض إرادتها شاهدت فيلم رديء، جنسي مقزز، غير مناسب لعمر الأطفال من غير أن يرف لها جفن، كما قالت الطبيبة النفسية، لم تخف أو تصيبها الحمى فقط، بل جنت، من مشاهدة منظر حميم بين أخيها وابنة الجيران، دخلت وأنا أسمع لغضب أمي وكأنه لا يعنيني، أخبرتها أني وجدت الباب مغلقاً، فذهبت إلى خالدة وجلست معها إلى أن عدت.

"أمي.. أين كنتي؟".

"مرا ماتت مشيت عزيت ورجعت.. مالك ما أكلتي؟"

"رجلك كيف جرحت؟ مديها لأراها".. نظرت لها، لم أشعر بها قبل يبدو أن شيئاً ما دخل بالساق، ترك حفرة كما تصفها أمي، حاولت العودة بذاكرتي لأعرف كيف جرحت رأسي صفحا بيضاء تماماً فقلت: "الباب يمة لقيتو مقفول أنا ذاتي شبعانة شديد قبيل جابو لينا فتة لحم في المدرسة كتيييرة أكلنا لمن خلينا الباقي في المدرس".

"تنفعك وترقعك تعالي نغسل ليك الجرح دا ما يلتهب شنو جرحك يابت".

لا أعرف أو لا أذكر.. غسلتها جيداً وربطتها بقماش نظيف.. ارتاحي وقومي غسلي هديماتك وغيار أخوك كان قدرتي كان ما

قمت بشطفن ليك.

سمح.. يمة رأسي موجعني وعندي حمى شديدة..

تعالي..

وعقب حديثي استفرغت حتى كاد الاستفراغ أن يقتلع في طريقه معدتي.. أمي هلعت لحالي، وأنا لا أشعر بشيء غير شدة الألم من عيني، فجأة أخبرتها:

"أمي عيني تولمني، أشعر بوخز فيها"..

"هل تنزف؟".

لا أعي إلا بكاء أمي وخوفها وجلوسها تحت رجلي بلا حيلة، أريد ضمها وإخبارها أن تطمئن، إلا أن الألم يزداد ورأسي صفحة بيضاء أو كأني في غيبوبة.. كل الأشياء ضبابية.. تلطخت بالاستفراغ، فسارعت لإخراج ملابسي، ذلك كل ما أذكره.

عدت إلى وعيي وأنا في غير المكان الذي كنت أستلقي به.. الآن أرقد على مرتبة تشبه مرتبة المستشفى والرايحة الكريهة والملاءة (لبنية).. فتحت عيني لأجدها تجلس قربي.. لمستها لأتاكد هل أنا أحلم أم ماذا لتقوم منتفضة:

"تهاني يا بتي الحمد لله.. مالك الحصل عليك شنو؟ في زول هبشك؟".

قلت: "لا أعرف أين أنا الآن؟». لم تقل غير "حمدالله على سلامتك نحن في المستشفى لينا عشرة يوم.. انتي بين الحياة

والمـوت.. مالـك بتهـضربي بعينـك؟". مـددت قدمـي لأنظـر إليهـا وجـدت الجـرح كاد أن يـبرأ، فقالـت: "أخرجـوا مـن رجلـك عـود، يبـدو أنـك وقعتـي في شـجرة قديمـة أتذكريـن؟". حتـى صـوتي أتـاني ضعيفـاً، مـا عارفـة نحـن هنـا مالنـا!!

"يا بتي في زول أذاك؟ قولي عشان كان في؛ نوقفو في حدو"..

"عاوزة أمشي بيتنا يمة والمدرسة.. المديرة بتكون فصلتني؟"

"عارفة أنك هنا.. جات واحدة منهن زارتك.."

"يمة أرح البيت".

"أيـوة ماشـين، نسـتنى الدكتـورة تجـي تخرجنـا، قالـت عنـدك صدمـة نفسـية شـديدة، لكـن مـن شـنو؟ شـنو حصـل؟ ونحـن مـا عارفنـو!".

عدت إلى البيت أنا لست أنا.. أنا فتاة في ثوب طفلة..

# 5

ذهبت إلى المدرسة اليوم الرابع لخروجي من المستشفى شخصية مختلفة، اختفت البنت المشاغبة البريئة الهاربة من عقاب معلمة الإنجليزي تماماً، صرت أكثر هدوءً وأكثر قهراً وأكثر شراً أو يبدو أني أردت أن أكون هذه البنت، فصنعتها بتدبر.. دخلت الحمام في نهاية فسحة الفطور، وخرجت سريعاً. قبل جرس الحصة الرابعة يضرب رأيت معلمة الإنجليزي، وهي تدخل حمام الصف السابع، كان أنظف حمامات المدرسة. تدفع البنات كل يوم جنيه للمعلمة المشرفة، فتقوم بدورها بإعطائها للعامل ليغسلها لهم. ممنوع علينا دخوله،

فندخل حمام صفنا هو الآخر نظيف إلا أنه لا يشبه الحمام الآخر، يتم إغلاقه بطبلة أُحضرت لغرض الحفاظ عليه نظيفاً ولئلا تقوم تلميذات الصفوف الدنيا باستخدامه، فتواريت عنها خوفاً من العقاب إن رأتني بعد نهاية فسحة الفطور خارج الصف. تركتها دخلت ثم خرجت لأجري قبل خروجها أغلقت عليها الباب من الخارج، وابتعدت جرياً إلى الصف، مكثت قليلاً ثم رفعت يدي مستأذنة أستاذة ماشة الحمام لتومئ بالموافقة، فعدت إلى الحمام المجاور دخلت سريعاً وأسمع للطرق على الباب كأنه لا يعنيني، أعرف أنها مصابة بمرض السكري، كثيراً ما كانت تتذمر في الفصل بأن السكري مرتفع بسببنا، قلت لنفسي قد تخاف، فتسقط مغمى عليها. لن يحدث لها شيء، بل ستخاف، ولم أرتدع، رغم أني تذكرت ما قد يحل بي إذا قبض عليّ وانكشف أمري، سأطرد من المدرسة بعد العقاب في الطابور، كما حدث مع منال. معلمة الإنجليزي راجلة حكومة كبييير، نخافها نحن وتتملقها الوكيلة الأولى، أملاً في اختيارها مديرة بدلاً عن المديرة مقبل العام، فهي ستنزل المعاش كما تقول خلال العام، تركتها وأنا أتململ ورائحة الحمامات الكريهة تحيط بنا، لا أريد قتلها، لكن أريد أن تنكسر قوتها بل أردتها أن تخاف كما تخيفنا، خبطت الباب ونادت، وأنا أستمع إليها مستمتعة برنة الرعب في نبرة صوتها ثم تباطؤ صوتها وبحته وانخفاضة رويداً رويداً إلا أني لم أفتحه فوراً، تركتها تصرخ، وصرخت معها بعلو صوتي، لتقول بضعف تام: تهاني! افتحي أنا المعلمة يا بت ما شيطان إلى أن تأكدت

أنها غير قادرة على التنفس ضعفت نبرة صوتها، نعم أخيراً رأيت وسمعت انكسار صوتها وحشرجة روحها، ففتحت الباب ومسكت مقبض الباب الآخر بارتجاف حقيقي منها، لا من الشيطان، فكنا في تلك اللحظات وحدنا وهي داخل الحمام، وأنا أتعوذ كأني خفت من الصوت، وفتحت الباب وكان نفسي يسرع هبوطاً ونزولاً بطريقة مبتزلة مسرحية رخيصة مني إلا أنها صارت حقيقية بعد رويتها إلا أن عقلي الصغير طمأنني وسبق لساني صوتي كأني آتية الآن من الصف وأنا أتساءل بكل براءة: "الباب أبى يتفتح، منو قفل الباب؟».

سندتها برفق وقدتها وهي خايرة القوى تماماً تسبقها دموعها للحديث: "اجري نادي لي أي معلمة في المكتب وإلا لو معاكم معلمة ناديها"..

أسرعت بكل قوتي، هتفت: أستاذة حنان عاوزة زول قالت جمب الحمام، وعدت، لم ألتفت حولي لأرى جري المعلمات للحاق بها، لكن بدأت أسمع صراخ البنات، حالة عجيبة من الهرج سادت، أوقفتها الإدارة بمجرد وقوفها أمام باب مكتبها، عدت أدراجي للصف، حاولت معرفة من أغلق الباب عليها إلا أنها فشلت تماماً لم ينتهِ الأمر. ذلك اليوم نقلت الأستاذة للمشفى المجاور للمدرسة في غيبوبة تامة، تم صرف جميع التلميذات إلى بيوتهن ونقل العقاب لليوم التالي، لحين الاطمئنان على الحالة الصحية لها، كما قالت الوكيلة، بكرة الكلب البوليسي بطلع البت العملت كدا، بثقة تامة، خفت وفكرت في الغياب، لكن سيتم اكتشاف أمري غسلت

ملابسي والحذاء غيرت الشراب والداخليات والطرحة سألتني أمي مستغربة عندكم حفلة. حكيت لأمي، فضحكت قالت: "كذابة، الكلب إلا يقبض أي بت دخلت الحمام، لكن يا تهاني أوعى تكوني انتي القفلتي عليها الباب". نكرت، فهزت رأسها كأنما تعرفني كاذبة.

ساحة المدرسة كبيرة جداً، مدرستان داخل مدرسة، تتكون المدرسة من ستة عشر صفاً وأربعة مكاتب معلمات ومكتب وكيلة ومكتب إدارة، كل قسم يقابل الآخر، عدا الصف السادس يقبع بعيداً، فقد كان مميزاً لدى المديرة، أكثر البنات شغباً وبلادة، كما تقول، فوضعتنا مقابل مكتبها تماماً لتكون عينها علينا.. الصف السادس الذي لا يعجبهن نصف فريق الكرة الطائرة منه، نعم أحرزن كأس الكرة الطائرة، رغم ذلك لا يرونا إلا جاسرات قليلات أدب بليدات، رغم كبر مساحة المدرسة وعدد فصولها الضخم أستاذة الإنجليزي تقوم بتدريس الإنجليزي للصفوف من السادس للثامن في القسم (ا)، وهي تتذمر مطالبة بمعلم ليساعدها، فالحصص أكبر من طاقتها تقوم بتدريسنا إلى أن يأتي معلم يقبل بتدريسنا بجدول حصص ناقص، تشترك التلميذات في نظافة المدرسة، كل يوم فصلان يقومان بذلك، الإذاعة لكل صف يوم، فيقدمها كل صف مرتين في الشهر، الصف الثامن قصة لوحدها، نعم اهتمام المدرسة به غير طبيعي أفضل معلمات يقمن بتدريسه، ممنوع على تلميذاته الاختلاط ببقية تلميذات الصفوف الأخرى، لا أدري لماذا إلا أنهن متعاليات لا يرافقن إلا بعضهن ليس به أمر

مميـز، غـير أنـه يـأتي إليهـن أسـتاذ معـاصر جميعهـن أحببنـه، وهـو لا يـرى فيهـن إلا طفـلات كـما ادعـى، حتـى أنـا كان يعجبنـي رغـم أنـه لا يقـوم بتدريسـنا، فيحمـل في حقيبتـه دائمـاً حلـوى رخيصـة يقـوم بإعطائهـا حوافـز للتلميـذات النبيهـات، لاحقـاً عرفـت أنـه يعطـي الحلـوى لمـن تعجبـه مـن التلميـذات، إذ تـم القبـض عليـه لاحقـاً منفـرداً بـإحداهـن في وضـع غـير لائـق. يـوم العطلـة كان يقـوم بتدريـس مجموعـة مـن البنـات حصـة خاصـة، يـوم السـبت خرجـت البنـات بعـد نهايـة الـدرس، وتبقـت هـي تكمـل حـل واجبهـا دخـل عليهـما الخفـير وجدهـا تجلـس عـلى رجلـه، وقبل أن يتحـدث خرجـت هـي وتبعهـا للخـارج، لكـن أخـبر الخفـير المديـرة وكل أصدقائـه، فمنـع الأسـتاذ مـن تدريسـهن يـوم العطلـة دون فصلـه عـن العمـل أو حتـى عقابـه! التلميـذة تـم التسـتر عليهـا إلا أننـا عرفناهـا، كانـت جميلـة جـداً أجمـل بنـت في المدرسـة صامتـة، حتـى يحسـبها الكثـيرون صـماء دائمـاً مـا تضـع الطرحـة في كتفيهـا دون اكـثراث للمعلـمات أو تحذيراتهـن، أمهـا تحبهـا بهـذة الهيئـة كـما تقـول أسـتاذة هنـد: "أمهـا عـاوزة تخارجهـا سريـع عشـان كدا بتسـتعرض في جمالـه"، إلا أن مسـتواها متـدنٍّ، فقـط تنجـح بفضـل المعلمـين الخصوصيـين، كان جمالهـا كافيـاً لـيمنـع عنهـا العقـاب وتتهامـس التلميـذات أن لهـا خطيبـاً يحبهـا، ويـأت كل يـوم ليعـود بهـا للبيـت. كان الحديـث عـن الحـب في مرحلتنـا تلـك ضربـاً مـن العبـث والتفلـت، كـما تحذرنـا مرشـدة الصـف أننـا صغـيرات علينـا الانتبـاه لدروسـنا حتـى نتخـرج في مرحلـة الأسـاس وننتقـل للثانـوي العـالي حينهـا نكـون كبرنـا قليـلاً وعرفنـا الصـاح مـن الغلـط، بينـما

نحـن يقـال لنـا ذلـك هـي يسـمح لخطيبهـا بـأن يـأتي لإعادتهـا للمنـزل، وتتبجـح بالأماكـن التـي تذهـب إليهـا برفقتـه دون سـؤال مـن الإدارة لهـا، وأمهـا صديقـة للمدرسـة، تكمـل كل نواقصهـا مقابـل غـض الطـرف عنهـا، ترغـب في حمايتهـا، وهـي في العمـل ليـس لديهـا أحـد لتأتمنـه عليهـا، فتبقيهـا في المدرسـة، كانـت مدللـة الإدارة، فتغـدق عـلى المديـرة والوكيلـة مـن الهدايـا مـا غـلا ثمنـه حتـى تتغامـز التلميـذات عـن والدهـا هـو مـن منـع العقـاب عـن الأسـتاذ، فتدخـل مـع مديـر الإدارة التعليميـة فأسـكته ليسـكت هـو الخفـير.

الصـف السـادس كان أقـرب الصفـوف للحمامـات، فجميـع الأنظـار اتجهـت إلينـا نحـن المغضـوب علينـا، اليـوم الثـاني كان عاصفـاً نعـم بـدأ العقـاب مـع ضرب جـرس الطابـور، فـأُلغيـت جميـع المناشـط وتبـارت المعلـمات في مـن تسـتطيع منهـن أن توجعنـا أكـثر. تـم ضربنـا بـكل الطـرق وبجميـع السـياط ابتـداءً مـن السـياط انتهـاء بالشـلوت! نعـم شـلوت! أمـرت الإدارة بمنعنـا مـن دخـول الصفوف وإيقافنـا عـلى ركبنـا ونحـن نحمـل حقائبنـا الثقيلـة، إلى أن نعـترف بمـن هـي القاتلـة نعـم الفاعلـة، كادت أن تقتـل المعلمـة حتـى وأنهـا تغيبـت عـن المدرسـة بسـبب كومـة السـكري التـي دخلـت بهـا المستشـفى، لم أتصـور أن الأمـر سـيصل إلى موتهـا فقـط أردت كسرهـا، نعـم كانـت تسـتحق، حتـى تلميـذات المدرسـة فرحـن بمـا أصابهـا، كـن يتهامسـن بذلـك، دون أن تجـرؤ إحداهن برفـع صوتها. كان الـكل يكرههـا تقريبـاً، عـدا المعلـمات بطبيعـة الحـال، نسـمع أصـوات نقاشـهن وخلافاتهـن التـي لا تنتهـي وتعلـو ضحكاتهـن في

المكتب ويأكلن لحمها في غيابها، يتملقن بعضهن ويدافعن عن بعضهن، كما تخيلت في وقتها! فعلاقتي بمكتبهن علاقة قوية أسمع حديثهن وشكواهن حتى أعرف أدق تفاصيل بيوتهن دون أن يقمن بطردي، فقد كن يستمتعن بالشاي الذي أجيد صنعه، أنا من تقوم بإعداد الشاي وغسل العدة وأحياناً نظافة المكتب في غياب العم، أفعل ذلك بمحبة لو طلبتها مني أستاذة سعاد، فقد كانت صغيرة وجميلة وتعاملنا برقة، تخبرها المديرة أنها ستخربنا إن لم تكن أكثر حزماً علينا، أحب حصتها، فلم تكن تطلب مني الكتابة، بل كانت تبتسم لي وتسلم عليّ بحرارة كأني أختها الصغيرة. أستاذة بتول لم تكن تقوم بتدريسنا، رغم ذلك كانت تكره جميع البنات وتقوم بالدعاء عليهن بقسوة، تقرص الفتيات الصغار في بطونهن وأفخاذهن، دائمة الطلب من أمهاتن بأن يجلبن لها العطور والعسل واللحم! كانت هذه نقطة التغيير الحقيقية في حياتي، انتقمت منها، عاقبتها على جلدها لنا وخوفها من أمي الذي تحاول إخفاءه كلما عادتني في المدرسة، عمل زوجها في الحكومة والياً، فكان لها سائق خاص وعربة خاصة تستغلها في تحركاتها، تسكن بيت يحسدنها عليه زميلاتها، في مرة سمعتهن يتحدثن عن سوء استخدام زوجها لصلاحياته وقيامه ببناء البيت الذي يسكنونه من مال الولاية، إلا أنهن يضحكن ويتبسمن في وجهها، سمعتها في مرة تقول أنا عارفة في معلمات حاسداتني في نعمتي! لتنكر كل واحدة حديثها بقسم مغلظ، أن ذلك عيب منها كيف تفكر فيهن هكذا؟

كنـت أحـب المعلـمات كثـيراً ويعجبنـي أن أخدمهـن مثـلاً أسرع لمناولتهـن كـوب المـاء قبـل أن يطلـب منـي، أتسـابق مـع زميـلاتي لجلـب الطباشـير أو إحضـار مسـاحة للسـبورة أو حتـى جلـب السـوط في حـال فشـلهن في إسـكاتنا، خاصـة معلمة الخدمـة، كانت مسـكينة لدرجـة بعضنـا يلعـب أثنـاء حصتهـا، وعندما تغلـب حيلة تقـوم بالبـكاء، فنسـكت وتخـرج هـي، فتـأتي مرشـدة الصـف، لتقوم بواجـب تأديبنـا، نحـن الفصـل النشـاذ في المدرسـة، كل المعلـمات لا يرغـبن في تدريسـه لكـثرة فوضـاه، أحـب أن يبادلنـني المعلـمات الاهتـمام والحـب ولـو عـلى شـكل مرسـال،

إلا أن ذلـك لم يحـدث لأسـباب لا أعرفهـا أو بـدون أسـباب. مشرفـة الصـف بعـد انتهـاء العقـاب الجماعـي نادتنـي إلى مكتبهـا منفـردة، قالـت بـكل حـزم وثقـة: "تهـاني أنـا واثقـة أنـك مـن أغلقتـي البـاب لـن أشي بـك لكـن عليـك الإجابـة عـن سـؤال وحيـد: هـل أردتي قتلهـا؟ انتـي طفلـة مـن أيـن أتتـك فكـرة عقـاب المعلمـة بـدلاً عـن شـكرها؟" صمـت لتقـول: "لا أريـد إجابـة اذهبـي وتذكـري أنـك كنـتِ كابنتـي تمامـاً أنـا الآن لا أعرفـك يبـدو أن شـيطان ما تلبسـك، إن كنـتِ لا تصلـين، فصـلي، ليـس خوفـاً مـن عقـاب ربنـا، بـل ليحفظـك ويبعـد عنـك الوسـاوس الشريـرة التـي بدأتيهـا بمعلمـة الإنجليـزي، قـد تنهيهـا بقتلنـا جميعـاً، ربنـا سـترك كاميرات ممـرات الحـمام والقسـم الشرقـي مفصـولات أنـا مـا بكشـف عنـك سـتر ربنـا، لكـن خليـك عارفـة ربنـا سـترك عـاوزك تتـوبي، فتـوبي وارجعي البـت المسـكينة المشـاغبة، خلينـا نسـتمر نتعاطـف معـاك لأنـه ربنـا أكيـد حيسـألنا: ليـه وصلتـي سـنة سـابع ومـا اتعلمتـي؟!".

لا أذكر هل شعرت بتأنيب الضمير أم لا. تغيرت كلياً بعد ذلك نعم كنت بنتين في جسد واحد، تهاني وريان! تهاني الطفلة البريئة المسكينة، وريان التي لا تخاف من أحد، يبدو أني جننت! تلبستني فتاة أخرى يبدو أنها تسكنني منذ زمن طويل، أخرجتها للحياة خيانة أخي، ومرة حسن سيد الدكان.

# 6

دخلت مرحلة غريبة من حياتي لا أذكر كيف بدأت وخرجت فجأة مع خيانة أخي قد أكون أصلاً هكذا، أو لماذا أردت الانتقام منه في كل ولد تعرفت عليه؟! بدأت أتعرف عليهم، خاصة أولاد الصف الثامن (سنة تامنة) في المدرسة المجاورة بدايتي كانت سلام وابتسام من على البعد، ولأن مدرستينا متجاورتان كان من السهل الحديث إليهم أثناء الوقوف لشراء الحلوى من الخالات أمام بوابات المدرستين، فقد كان ممنوع البيع داخل المدارس، فتجلس النسوة أمام المدرسة مشكلات سوقاً صغيراً يحوي كل الحلويات والبسكويت الرخيص واللبان

والآيسكريم والتبش بالشطة والعرديب، هذان تحديداً كانا لا يباعان في مقصف المدرسة، فتحضراهما البائعات غير عابئات بمنع أصناف دون غيرها. قبل بداية اليوم الدراسي وبنهايته تبدأ حياتهن، نصف ساعة كل تحاول بيع حاجياتها واستلام نقودها قبل أن تهرب التلميذات من الدفع، كانت حياة أخرى، كل منهن تحاول جذب المشترين أكثر من غيرها. حاجة التومة كانت أكثرهن حظاً تبيع البسبوسة بالسمنة والقشطة والآيسكريم في أوراق معدة خصيصاً لذلك الغرض، لخوفها في الغالب من أن أسرقها تجعلني أقف جانبها مشاركة لها في جمع المال وتسليمه لها مقابل قطعة بسبوسة أحياناً أو أخذ آيسكريم أدفع جنيهاته غداً، نجتمع عند البائعات، وهن مهمومات بالبيع، وجمع المال سريعاً قبل قرع الجرس الصباح، فنرسل المراسيل على عجل ثم بثقة أكبر مع التعود وأدفعهم في الأخير للمراسلات، وأخيراً أدفعهم دفعاً للمغازلة. في حينها لم أكن أعرف أنها مغازلة، فيما بعد عرفت ذلك، لم أرتدع ولم أخف العقاب أبداً، فقلّ ما كان يتم عقابي، أخي على كبر أفعاله لا يُسأل عنها فلا ينتبه في الغالب إلى أفعالي، وإن عرفت خطأ تفكيري بعد ذلك من تحذيرات أخي، لكن بدأت لا أخاف منه، بل أتعمد فعل أي شيء يمنعني عن.. صياعة وصعت، أولاد وعرفت، لكن بعد موت أمي تعبت وتمنيت لو أني كنت أفضل حالاً، ربما ازداد عمرها، فهي ماتت من التعب والقهر، ماتت وارتاحت، أنا واثقة أنها حتكون في الجنة الآن تنظر إليّ ربما لو عاد بي الزمن قليلاً لرأت تهاني الأخرى التي

أحـاول أن أكونهـا الآن..

(عـلي) كان أول شـاب انتبهـت إليـه لصفاتنـا المشـتركة، دائـم الهرب مـن المدرسـة أول مـن يخـرج مـن بوابـة مدرسـته، فيجلـس في ظـل حائـط المدرسـة مـع الخـالات إلى أن يـأتي رفاقـه بعـد حصتـين أو أكـثر أحيانـاً يصـادق حاجـة التومـة، فيحـكي لهـا أسرار هروبـه مـن حصـة العـربي أو المعـاصر، إلى أن أتى يـوم فتنتـه إلى مديـره ليجلـده في طابـور الصبـاح بحضـور أخيـه، حسـب قولـه، حتـى لا يفكـر في الهـرب مـرة أخـرى، ولكنـه اسـتمر في هروبـه الكبـير دون خـوف. سـمعتها تحـكي لخالـة سـعدية عـن إخبـار المديـر بهـرب عـلي وخوفهـا مـن ضيـاع مسـتقبله، «لم أتوقـع أن يجلـده" هكـذا ختمـت قولهـا، إلا أن جميـع الخـالات وبخنهـا قائـلات: "لـو فيـه خـير بخلينـا نبيـع في الشـارع؟ زمـان أسـتاذ عـلي بقـول أدخلـن بيعـن، لكـن مـا ألقـى ورق ولّا أكيـاس آسـكريم في الحـوش واللبـان والتبـش والعرديـب ممنوعـات، والفطـور يجـي يفتشـه كل يـوم قبـل الطابـور اللـه يرحمـه كان راجـل فاضـل، لكـن عـلي المسـكين بقـى شراء مـا بشـتري مننـا، أهلـه بـدوه كـترة قـروش، لكن مسـكين هاملنـو هملـة شـديدة"، كنـت أجلـس أسـتمع لـكل حديثهـن، مصنفـات المعلـمات حسـب إلقائهـن التحيـة، المغـرورة والمبهدلـة والشـؤم..

عـلي يكـره أخـاه تمامـاً مثـلي، أبـوه متـوفى، كنـا نلتقـي هاربـين، كل بسـببه، لم أحـاول معرفـة لمـاذا يهـرب ولا هـو.. كنـا نتسـكع ونعـود، عرفـت المواعيـد التـي يتفـق أخـي فيهـا مـع عشـيقته، فأعـود وأختبـئ، بحيـث لا يشـعر بي أحـد، يدخـلان الغرفـة

ويتغازلان ويخرج هو أولاً ثم تتبعه هي، بدأت أكره أخي أكثر إلا أني أدمنت مشاهدتهما وهما يمارسان فجورهما بلا خوف من مجيء أمي.. أو شك أحد الجيران، لم أتخيل أنها قد تكون متواطئة معهما، إلى أن جاء اليوم الذي قررت فيه عدم الذهاب للمدرسة، لأرى كيف يدخل أخي عشيقتة لأخبر حسن سيد الدكان بما يفعلان وكيف ومتى! لبست ملابسي وخرجت إلا أني لم أذهب للمدرسة التقيت علي، فتسكعنا قليلاً نسيت أن أقول لجده بيت مهجور تقريباً أو شبه مهجور له مدخل صغير، كنا نتخبئ فيه أحياناً، نأكل فطورينا اللذين أحضرناهما إذا جعنا، علي دائماً يحمل فطوره في علبة، عرفت أن اسمها فطارة منه، في الأعلى يقوم بوضع السلطة وفي الأسفل البطاطس والبيض والفول أو العدس ولحمة رفيعة جداً ذات مذاق غريب (يقول إن اسمها مارت دلا) أو هكذا، أنا أحمل سندوتش الجمعية غالباً فول أو بيض أو عدس نأكل على مهل ونشرب من قارورتي المياه اللتين نحملهما دوماً، كنا لا نفعل كثير أشياء، في واقع الأمر نتحادث أو نلعب أو نلتحف كراتين بالية، خبأها علي بحيث نحافظ على ثيابنا نظيفة لحين عودتنا بنهاية الدوام أو عودتي قبل مجيء أخي للبيت ونتواعد للغد.. كان علي شاباً بغاية الخجل عريض المنكبين من يراه يتخيله رجلاً لا طفلاً مراهقاً في الصف السابع.. في مرة من المرات تعمدت ملامسته تماماً كما تفعل عشيقة أخي، نظر لي، لم يُبدِ اهتماماً أو ربما خاف، لأنه انتفض بقوة، ثاني مرة فعلت ذلك انفعل، ولم يعرف ماذا يريد بالتحديد إلا أنه ضمني إليه

بقـوة كبـيرة، وكأنـه غـير مصـدق أن ذلـك يحـدث فعـلاً، اليـوم الثالـث كـرر نفـس الفعـل، إلا أنـه عـرف الطريـق إلى صـدري، وحينها لم يكـن قـد نبـت لي صـدر مجـرد نقطتـين فقـط.. فضحكنـا عـلى حـالي إلا أنـه هـدأني قائـلاً "السـنة الجايـة ولّا البعديهـا بقـوم ليـك صـدر". عندمـا رأى نظـرات الجهـل انتفـخ قليـلاً وكأنـه وجـد رجولتـه في إخبـاري مـا أجهـل، "هـسي انتـي لسـتاك شـافعة، السـنة الجايـة ولّا البعديهـا جسـمك بكـبر شـوية والنقطتـين ديـل بكـبرن شـوية شـوية ويبقـن منقـات لمـن تبقـي بـت" لحظتهـا حسـيت عـلي مـدرس عـارف حاجـات كثـيرة، فسـألته "وانـت هـل كـبرت؟". ضحـك قليـلاً "ألا تريـن أن شـنبي بـدأ ينبـت. أنـا راجـل انتـي لسـاااتك شـافعة!".

تعمـدت العـودة باكـراً فوجـدت أمـي كعادتهـا غـير موجـودة والغرفـة غرفـة الجريمـة مشرعـة إلا أن أخـي لم يـأت أو لعلـه خـرج.. أخفيـت حاجيـاتي، وهـذه المـرة اتخـذت وضعـاً يسـتحيل أن يـراني فيـه إلا أني أرى وأسـمع كل شيء.. دخـل يحمـل أكلاً وعصائـر، دخلـت هـي، بـدأت تحـكي مغامراتهـا في المجـيء "تعـرف، أمـس حسـن قـررب يكتلنـي" التفـت إليهـا أخـي منزعجـاً، فواصلـت "السـاعة الرمـاني كـدي ومـال عـلي ووب عـلي وب عـلي»، في عمـري الصغـير ذاك لم أندهـش لحديثهـا في الواقـع لم أفهـم مـا تعنيـه تمامـاً، كانـت شريـرة ترغـب أخـي فيهـا بطريقـة مقرفـة، فيـما بعـد عرفـت أنهـا امـرأة تحـب الرجـال سـمعتها في الحلـة غـير محمـودة، تحـوم حولهـا الشـكوك والقصـص، تبيـع جسـدها لمـن يدفـع أكـثر، امـرأة عاقـر تـزوج عليهـا زوجهـا أخـرى، فولـدت

لـه ابنتـين وصبـي مـات قبـل تسـميته، تعـرف غـير أخـي رجـالاً كثيريـن لا تـتردد في اصطحابهـم إلى منزلهـا بحجـج مختلقـة، لم يقبـض عليهـا أحـد في وضـع غـير لائـق، والحديـث عنهـا يـدور همساً بـين جلسـات الجبنـة النسـائية التـي قاطعتهـا هـي بمجـرد حمـل ضرتهـا. حتـى أخـي سـيرته ليسـت محمـودة للأمانـة، كان بيسـكر مـع شـلته جمـب اللسـتك قـدام البيـت ومـرة مـرة بـضرب سـيجارة بنقـو دا كلـو عرفتـو بعـد كـبرت شـوية، كنـت متخيلـة الأخ في البيـت مـلاك مـش النهـار كلـو يكـورك وينهـر، وفي النهايـة يطلـع بتـاع بنقـو ونسـوان!

أقـف متلصصـة إلى أن ينتهيـان ويغفـوان قليـلاً فيسـتيقظ أخـي واضعـاً رأسـه بـين نهديهـا العامريـن في كل مـرة وهـي تلعـب لـه بشـعره.. سـألته عـن أمـي فقـال: "لا، عارفـة بتمـرق تعمـل نفسـها مـا عارفـة، عـاوزاني أرتـاح يـاخ وانتـي راحتـي". حرضهـا أخـي عـلى الطـلاق ليتزوجهـا هـو إلا أنهـا تمسـكت برجلهـا بدعـاوى مختلفـة.. لا يأتيـان عـلى ذكـري أبـداً أو لعلهـا لا تعـرف أن لـه أختـاً، هـي أنـا، قـررت بعـد ذلـك تجربـة مـا يفعلانـه مـع عـلي، كيـف ذلـك؟ لا أعـرف..

هربنـا كعادتنـا بعـد الحصـة الرابعـة تعـود لمـسي، فـكان يسـبقني للمـسي بطـرق سـاذجة، وكأنـه لا يقصـد ذلـك، يمـد يـده ليتنـاول قـارورة المـاء لاصقـا يـده بصـدري أو أي مـكان آخـر، لامسـته وحضننـي وقبلنـي كنـا نكتفـي بذلـك، إلا أني قـررت تجربـة أمـور أكـثر عمقـاً، فرقـدت وطلبـت منـه المجـيء قـربي جسـدي، كان صغـيراً جـداً، لدرجـة يحملنـي عـلي كالطفلـة، ويقـول إنتـي خفيفـة

كالريشـة، حاولـت أن أفعـل كـما تفعـل عشـيقة أخـي تمامـاً إلا أن جسـدي صغـير جـداً لا يحمـل نتـوات، وحـدث مـا تمنينـه هـاج وبـدأ تقبيـلي أولاً ولمـسي ورفـع ثيـابي وواصـل إلى أن انتهـى غـير تعـب، ولا ألم، بـل متعـة وآهـات خفيفـة، قائـلاً وهـو يسـقط عـلي: "انتـي مـا بـت!".

"كيف ما بت؟"

"انتـي مـا بـت، أنـا فقـدت رجولتـي عنـدك، وانتـي فقـدتي بكارتـك مـع غـيري".

# 7

انفصلنا بعد تلك التجربة، أفزعني قوله وتأكدت فعلاً أني سبق وحدث لي ذلك، كيف وأين ومع من لا أذكر تحديداً.. كنت أحتفظ بسري الصغير، سعيدة بأن لي عالمي الخاص الذي أتشاركه مع صديق إلا أن للصديق مآرب أخرى، فقد كان يفاخر برجولته بين أقرانه تلاميذ الصف الثامن نعم أصدقاؤه عرفوا ما كنا نقوم به بل صار الأولاد يشيرون إلي بالبنان، ويتجرأ في بعض الأحيان أصدقاء علي في مراودتي عن نفسي.. لم أستجب لأي منهم بسهولة، يبدو أنهم يتحدون بعضهم البعض في من منهم أسرع في تطبيقي، فلم أسمح لأي منهم بكسب الرهان

على حساب جسدي، أحببت علي فعلاً فقد كان شاباً مختلفاً صادقاً يعاملني بكل ود لا يمثل عكس أقرانه حتى هو أحبني بطريقة من الطرق، رغم فراقنا قبضته متلصصاً في النظر إليّ وأنا في الشارع إلى بيتنا بنهاية العام، نجح رغم هروبه من المدرسة وبمجموع كافٍ ليدخله مدارس نموذجية.

إيهاب كان الشاب الثاني الذي تبادلنا الرفقة كان أكثر جرأة من علي، إلا أنه يخاف ويرغب في الأولاد أكثر من البنات كما قال، حكى عن قصة عشقه لابن الجيران، وهو طفل الصف الثاني، اندهشت كيف يعشق الرجل رجلاً! تسارعنا فصار بيننا رابط أقوى من رابطي بعلي، يتخيل الشباب أن إيهاب يغازلني وأستمتع أنا بالرفقة والتسكع، وحكايات إيهاب المتخيلة، بدأت - بعد مقولة علي - أكره أن يلمسني أحد ما، فتعمقت علاقتي تماماً به، يستمتع بالصيت وأنا بالاهتمام، بدأت تحوم حولي الشبهات بكثافة، وأخذ الأهالي يحذرون بناتهن من الاختلاط بي، تغيرت نظرة المديرة لي بعدما كانت تعاملني كيتيمة صارت تظهر حقدها لي من دون خوف، ناعتة إياي بـ (بت الحرام)، بملء صوتها أحياناً تمنعني من دخول الفصل وتأمرني أن أقف حارسة للبوابة الرئيسة، تبتعد وتقترب علاقتي بأخي صرت قليلة الاهتمام بمتابعة ما يفعلان اكتفيت حد القرف، كرهتهما سوياً حتى أمي، بدا صوتي يعلو عليها لأقل سبب وأتذمر وأزمجر في غيابه، تعلمت أن أسرقه ليس لحاجة وإنما هكذا نكاية به. كنت آخذ مبالغ صغيرة لا يشعر بفقدانها وحجتي في ذلك غسل الملابس، أشتري

الحلويات من المقصف، أهدي للمعلمة الوحيدة التي أحببتها وكرهتني، الكراهية العديل، كانت تشمئز مني وتمنعني منعاً من الاقتراب منها.. أشتري الهدايا وأعطيها هدى الفتاة المدللة لتعطيها لها فتأخذها مبتسمة... بنهاية اليوم أتمكن من سرقة دفاتر هدى وأعمل فيها تمزيقاً بالموس !

الكل مجمع على سوء أخلاقي إلا أن أحداً لم يجرؤ يوماً على توجيه أصابع الاتهام لي بصورة علنية خوفاً من أمي.. كانت شرانية رغم ملامح الطيبة التي تبذلها للناس كما يقولون، تعتقد في الشيوخ ومقدراتهم وتؤمن بكراماتهم فتكثر من زيارتهم، يحكي أنها قتلت راجل جيرانا عن طريق سحالي خبأتهن تحت عتبة دارهم، تعذب الرجل إلى أن مات، فصار الجميع يهابها، ولا يجرؤ أحد على توجيه أصابع الاتهام لها في أي شيء، حتى أنا، تخاف المدرسات مني، فلا تقوم أحداهن بمعاقبتي أبدأ بعد معرفتهن بحقيقتها وعلاقتها بالسحر الأسود.

بدأت أنشر الأقاويل حول زميلاتي، أتهم سهى بأنها سرقت قروش فطور تقوى، وأحلف أني رأيتها تدخل يدها داخل الحقيبة، ولكن لا أعرف هل سرقت أم لا.. تعففت عن فطور المنظمة، فقد كان دخلي الثابت قادراً على إطعامي، أخي نفسه يبدو أنه يسرق ما أسرقه، لم يسألني أبداً عن مصدر مصروفي. عدت في أحد الأيام باكراً بلا تخفٍّ شعرت بالتوعك، اجتاحت الحمى جميع جسدي فأمرتني المديرة بالعودة للمنزل.. عدت وجدت أمي غائبة كعادتها، أخرجت الغطاء ونمت لا أعرف كم نمت، لكن صحوت على صوت جسم ثقيل آت من الجدار

الفاصل بيننا وبيت جارنا حسن، لم أستطي النهوض. وأغمضت عيني مدعية النوم الثقيل. شعرت بحركة أخي في الحجرة، وهو يهزني برفق هي أنت صاحية؟ لم أشا أن أتعرض للضرب، فصمت وأغمضت عيني وتراجع بعد أن أغلق باب الحجرة علي.. عرفت أن رفيقته أتت فلم أنشغل بهما.. اكتفيت، لكن على إخبار زوجها لمنعها دخول بيتنا، قد يقتلها أو يقتلهما، فنرتاح منه.

كرهتهما سوياً فلم أخرج إلا أن صوتهما يأتيني واضحاً عرفت أنها تأتي عبر الحائط بيننا، لذلك لا يقبضها زوجها سأخبره في طريقي للمدرسة يوماً قد يقتلني أخي لكن حسن سيد الدكان سيقتله أولاً ويريحنا من قرفه، اختمرت الفكرة في رأسي وقررت تنفيذها قريباً قبل أن تتركه! وأنا غارقة في افكاري فتح أخي الحجرة، منادياً "تهاني اصحي، مالك؟». فتحت عينيّ قلت: "عندي حمى شديدة، المديرة قالت لي ارجعي.. أمي جات؟".

"لا لا، جعانة؟".

"ما جعانة بطني واجعاني".. "خلاص اشربي العصير دا بتبقي كويسة"، وقد كان، شربت العصير، وأنا في حيرة من رقة أخي الغريبة بعد عودة أمي ذهبت بي إلى المركز الصحي، فحصت الملاريا فصرف لي الطبيب الراجمات تغير أخي معي قليلاً خلال مرضي إلى أن سألني في يوم وهو يشرب القهوة "يوم داك انتي شفتي معاي منو؟".

ومـن غـير تـردد قلـت "مـرة حسـن سـيد الـدكان" وكأنـه فوجـئ بإجابتـي رفـع يـده عاليـاً وصفعنـي بهـا إلى أن كـسر سـني الصغـير، بكيـت، لكـن لم أصرخ، قلـت: مالـك؟

قال لي "شفتي منو؟".

"ما شفت زول خلاص"

"بـت الكلـب كـدي أسـمع تـاني قلتـي مـرة حسـن، إن مـا كتلتـك ودفنتـك تحـت البلاعـة دي عـان عينـة المطفيـة دي"، أمـي كانـت موجـودة، إلا أنهـا لم تتدخـل أبـداً لربمـا خوفـاً منـه فقـررت تنفيـذ مـا أضمرتـه في نفـسي، وأهـرب، قبـل أن يعـرف مـن أخـبره. وضـع أخـي فنجانـه وخـرج مـن غير أن يحـادث إحدانـا، بـدأت الآن حياتي تتحـول فعليـاً، لفظتنـي المدرسـة أولاً وهـا هـو البيـت في طريقـه للفظـي، سـأبحث عـن بيـت لي وحـدي، كيـف؟ لا أعـرف، سأخـرج وأعيـش في الشـارع مثـل أخـي تمامـاً، ومـن حقـي أن تعيـدني أمـي إلى المـكان الـذي ولـدت فيـه، لم أدرك حينهـا أني ولـدت في الشـارع، وألقـت بي مـن حملتنـي في الكوشـة ورا بيتنـا مبـاشرة، فالتقطتنـي أمـي وقامـت بإعالتـي لتسـند كبرهـا عـلي!

أنا لست تلك البنت إذن التي أحاول أكونها!

# 8

خرجت كعادتي باكراً بعد غياب أسبوعين تقريباً قاصدة المدرسة تسبقني سمعة متضاربة وخطاب فصل، وأمي لن تستطيع المديرة معها صبراً، خوفها من سحر أمي في الغالب سيجعلها تعيدني إلى المدرسة مرغمة، أخبرت أمي أنها ستعيدني إلا أنها لن تدعني أدخل الصف مع بقية التلميذات، وصلت المدرسة صباحاً تجمدت أم الصف، فقد كانت تكرهني جداً لأكون أكثر دقة بعد حادثة صغيرة كانت تتعاطف معي جداً ولا تميزني في المعاملة رغم أنها تجعلني أقف طوال الحصة حتى لا أتحدث، طلبت منها في يوم أن تحتضنني فحضنتي كأم تماماً، تعلقت بها جداً بعد مضي أسبوع تغيرت كلياً معي، يبدو أنهن - أي بقية المعلمات - حكين لها عن الحكاوى التي

تسبقني في كل مكان عن سلوكي وعلاقاتي مع الأولاد والمشي البطال! الغريب لم يرَ أي منهم مني شيئاً لكن سمعوا من آخر سمع هو الآخر.

أخرجوني من المكتب لساعة أو أكثر ثم نادوني، أمرتني المديرة بالعودة للصف، يبدو أن اتفاقاً عُقد بينهم من جهة وبين أمي من جهة أخرى يظهر ذلك من تعابير الانتصار على وجهها، وهي قادمة نحوي.. أدخلت الصف هذه المرة غازية، انتصرت أمي لي الغريب ما في دليل على أني كنت أدرس بهذه المدرسة، وهي المشكلة التي ستنفجر بعد ذلك بثلاثة أعوام دراسية.. حاولت أن أكبح نفسي فعلاً أن أتمسك بالمقعد الذي تكرمت المدرسة بتوفيره لي رغم استحقاقي له، سارت السنة متهادية إلى الخواتيم والحمد لله قلت الشكوى مني، التزمت تماماً بالخط الذي رسم لي للسير فيه، بي رغبة حقيقية في تلقي التعليم والسير نحو الأمام، قررت أن أتغير، أصير فتاة حقيقية، تركت خلفي أوهام الهرب ومصاحبة الأولاد من المدرسة المجاورة تغيرت وحدي دون سبب وإن كنت **أحن** دوماً إلى علي، لكن هو لا يسأل عني وإن التقينا مصادفة يتبعني ببصره إلى أن أغيب دون أن يدرك رفاقه الجدد اهتمامه الشديد بي، بل يحاول إخفاء سرنا الصغير!

تنادى أولياء الأمور في منع بناتهم مني وإن اشتكت تلميذة مني وإن لم أفعل ما قالت ضربت. السياط صارت لا تلذعني وتخيفني كالأول، جلدي تخن أو مات.. تقوى كانت تشبهني، منبوذة من التلميذات لأسباب مختلفة عني أمها امرأة غنية

تحـضر معهـا مصاريـف كثـيرة، مـرات عـشرة مـرات عشريـن، وأحيانـاً خمسـين، وأبوهـا رئيـس المجلـس التربـوي، كانـت المعلمات يكرهـن الرجـل ويقلـن عينـه زائغـة، فتصاحبنـا رغـم تحذيـرات أهلهـا منـي، هـي كانـت (بليـدة) ومتخلفـة، اعتدنـا في فسـحة الفطـور الذهـاب خلـف الصـف الأول، نفـت فطورنـا، ونلتهمـه ثـم نحـلي ونلعـب إلى أن يـضرب جـرس نهايـة الفسـحة المدرسـة، كانـت واسـعة جـداً لدرجـة سـت مريـم تدخلهـا ركشـتها إلى أمـام المكتـب بدعـوى بعـد المسـافة، في مـرة بعـد اشـتريت الفطـور، ذهبنـا لمكمننـا، ولم نـعِ إلا والمعلمـة تضربنـا ضربـاً مبرحـاً يبـدو أن الفسـحة انتهـت ولم نسـتمع للجـرس أخذنـا سـوياً لمكتـب الإدارة أرسـلت تقـوى للمنـزل لإحضـار ولي أمرهـا وأنـا أمـرت بالذهـاب للفصـل، الحقيقـة تحـيرت مـاذا فعلنـا!! لم نسـمع جـرس الدخـول لكـن لم يصـغِ إلينـا أحـد، فالجميـع يحملـون عنـي أفـكاراً مسـبقة، نعـم حقيقيـة، لكنـي تغـيرت، رغبـت في أن أكـون فتـاة أحسـن لـو اعطـوني فقـط فرصـة أخـيرة.. نعـم.. لم نسـتمع للجـرس إلى أن تطـور الأمـر إلى اسـتدعاء ولي أمـر البنـت المسـكينة، مؤكـد أن في الأمـور أمـور، كـما تقـول سـت عواطـف.. دعـوني أحدثكـم عنهـا قليـلاً هـي امـرأة تقريبـاً تكـون في العقـد السـادس مـن عمرهـا متزوجـة ولهـا البنـين والبنـات والحفيـدات والأحفـاد إلا أنهـا امـرأة متسـلطة تكـره البنـات كرهـاً متناهيـاً، حتـى بنـات تامنـة مسـمنها سـت كارهـة نفسـها، ليسـت جميلـة، بـل قصـيرة ممتلئـة، تـزوج عليهـا زوجهـا بنتـاً مـن الثانـوي العـالي، فائقـة الجـمال، وتخفـي عـن الجميـع قصـة زواج زوجهـا، والجميـع يعلـم أنـه تـزوج !

لم تكـن المديـرة ولا الوكيلـة، ولكـن عندمـا رأت البنـت برفقتـي تحركـت فيهـا غريـزة الافـتراس، فأرسـلت لـولي أمرهـا بحكـم علاقـة قـربي تربطهـا بأهلهـا، الصراحـة للمـرة الأولى خفـت، رأيـت الـشرر يتطايـر مـن أعـين الـكل، محمـد أخ تقـوى أتى بديـلاً عـن أمهـا، وهـو يعرفنـي بحكـم جوارهـم لأهـلي إلى حـد مـا، ومـا إن وجـدني حتـى فهـم أن أختـه أتـت مصيبـة مـا، فانتهرهـا صارخـاً "يا بـت الكلـب مـش قلنـا ليـك الزفـت تهـاني مـا تباريهـا". واختطـف السـوط مـن يـد المعلمـة ووقـع في أختـه ضربـاً في جميـع جسـدها، سـادت حالـة مـن الهـرج والهلـع والـصراخ يتعـالى إلى أن صـارت المدرسـة عبـارة عـن صراخ جماعـي لم يسـتطع أحـد أن يوقفـه، إلى سـقطت الفتـاة المسـكينة مغمـى عليهـا، وتدافـع الأهـالي مجـاوري المدرسـة، وأنـا أرتعـش رعبـاً قـد يقتلنـي إلا أن سـت كارهـة نفسـها خبأتنـي خلفهـا منتهـرة إيـاه:

يـا ولـد قلنـا ولي أمـر مـا قلنـا زول مجنـون اطلـع بـرة وإلا نطلـب ليـك الـ 999 أخـرج عنـوة، وفلتـت تقـوى مـن المـوت، إلا أن تلـك القتلـة أنهـت علاقتنـا مـن جهـة، وأنهـت علاقتهـا بالمدرسـة، فرفضـت المديـرة إعادتهـا خوفـاً مـن ارتـكاب أخيهـا جريمـة مـن الجرائـم داخـل المدرسـة ولم يشـفع لهـا ابيهـا ربـس المجلـس التربـوي بقولـه خليهـا في البيـت تـتربى!

منـع وجـود التلميـذات خلـف الفصـول تمامـاً بلهجة تهديـد جادة، مـن سـيقبض عليهـا خلـف الصفـوف تجيـب شـنطتها وتشـوف مدرسـة أخـرى، لتكمـل بهـا دراسـتها، عـدت نهايـة اليـوم أدراجـي، وفي نفـسي مـاذا إن رحلنـا مـن حلتنـا! سـكنا حيـاً لا يعرفنـا فيـه

أحـد عندمـا قلـت لأمـي ذلـك بكـت قائلـة:

"والله يـا بنتـي أنـا الليلـة مـا شـديدة إن شـاء الله لـو ربنـا مـد في العمـر بنخـبر لنـا مـكان تـاني والـرزق بيـد الله، أصـلاً الراجـل قليـل الأدب دا خـاتي عينـو عـلى البيـت يقـوم أخـوك يعـرف يعلـق معـاه نبقـى في شـأن بعـد كنـا في شـأن آخـر". فرحـت وابتسـمت، اقتربـت مـن أمـي لأشـكرها، وجدتهـا محمومـة، فقلـت أمـي مالـك ؟

للمرة الثانية بكت.

قومي البسي نمشي المركز.

"أخوك وين؟".

جريـت بحثـت عنـه وجدتـه يتسـكع كعادتـه في ضـل النيمـة مـع أولاد الحلـة رغـم قبولـه عسـكري جيـش لم يـترك مـن عاداتـه إلا تدخـين البنقـو، أتى مسرعـاً صائحـاً "يـا بـت الكلـب بتجـي تناديـني مـن قـدام الأولاد مالـك وكـمان حفيانـة؟ أدرعـي ليـك طرحـة! لم أجـب وإنمـا أشرت إليهـا". فقالـت موجهـة حديثهـا إليـه:

"تهـاني دي أمانـة في رقبتـك، إن حصـل لي شي، كنـت قايلـة الدنيـا بتمهلنـي نامـن تكـبر عـلا نـص البيـت أنـا خليتـو ليهـا وكنـت ناويـة أسـجلو ليهـا، لكـن قـدر الله مـا سـجلتو أوعـى تظلمهـا يـوم القيامـة، بحاجـك بيهـا!". لم أفهـم مـن همهمتهـا الكثـير ولم أتوقـع أبـداً أنهـا قـد ترحـل، فبكيـت وجلسـت مفترشـة الأرض، يبـدو أني شـؤم عـلى الـكل في تلـك الليلـة رحلـت أمـي وتيتمـت مـن جديـد!

# 9

تورمت قدماي النحيلتان من كثرة المشي، بعدت كثيراً عن البيت الذي تركت لي أمي نصفاً فيه، رحلت قبل أن تصل بي إلى بر الأمان،الناس يبكون أمي وأنا أبكينا سوياً، فقد مت معها إلا أني لم أدفن كنت أعرف المصير الذي ينتظرني تماماً إلا أني صبرت مر اليوم الأول والثاني على رحيلها بكل هدوء لم يأت أهل للعزاء، فقد كنا بلا أهل تقريباً، الجيران تناوبوا في ملازمة الفراش وهم يتجاذبون أطراف الحديث ويتضاحكون بصوت مجلجل، أنا فقط أنظر إليهم أرغب في طردهم جميعاً كيف يضحكون وأمي ميتة. انتهت أيام الفراش وأخي عاد إلى عمله، يوقظني باكراً لإعداد الشاي، فيشرب بكل هدوء وينصرف بعد إعطائي مصروفي أثرت فيه وفاة أمي، فكان عطوفاً معي، يجالسني ليعرف كيف أمضيت يومي، وإن كنت سعيدة، ولماذا صرت هكذا بائسة، وإنه علي إلا أخاف، فقد صار مسؤولاً عني إلى أن أكبر وأخبرني أن نصف البيت هو

لي، ينقبض قلبي عند جلوسي معه لا أشعر معه بالأمان لا أعرف لماذا، ينتفض جسدي بحركة لا إرادية عند رويته هو شاب وسيم، يميل للاسمرار شعره قصير، ممتلئ الجسم، طويل القامة، مفتول العضلات، يعمل عسكرياً في الجيش، يلبس زياً موحداً سيء الخلق، يصرخ بدون أسباب، ويسب من غير داع، يخافه غالبية شباب الحي إلا أن له شلة تأتي إليه في الغالب مساء، فيتسامرون أمام الباب ويشربون الشيشة والبنقو والعرقي ويتشاطرون أحياناً قزاز الويسكي والفودكا المصادرة، يأتي بها أمجد صديقهم يعمل في شرطة المكافحة.

ماتت أمي، لا أستطيع إخبار أخي بمشكلاتي المدرسية، أخبرته أني لا أود الذهاب للمدرسة لم يهتم كثيراً فقط وضع شرطاً:

"إياك والصياعة والصعلقة، ما يجي يوم يقولولي تعال سوقا من قسم ولّا بوليس ولّا اترزعي في البيت، جاك نصيب خير وبركة عرسي، جيبي ليك جنا ينفعك". مازلت طفلة كيف يفكر في تزويجي؟ ليواصل "عندك بيت بكرة بجيك زول ياخدك"..

أطرقت صامتة لينتهرني "ما بك؟".

"لا شي"

"ابحث لي عن عمل".

"أي عمل بجسدك الضئيل هذا، أنا شغال، يوم ما أقدر على مصاريفك أمرقي اشتغلي".

خرجت من المدرسة إلى الشارع فعلاً بعد أن أنهي أعمالي المنزلية كنت أسير بلا هدى لا عمل لي وإن كنت بين الفينة والأخرى أنظف وأغسل أواني البقالة، فيناولني حسن أجراً قليلاً منبها لي بألا أخبر أخي خوفاً من قلة أدبه! أنا الأخرى أخاف منه لو عرف أني أعمل قد يقوم بذبحي وإلقاء جثتي محل وجدت في الكوشة.. ست كارهة نفسها أتت تبحث عني في أحد الأيام، فرحت لرؤيتها كانت المرة الأولى منذ وفاة أمي يأتي أحدهم، ليعرف كيف هو حالي. اقترحت أن امتحن شهادة تامنة، وهي على استعداد تام على معاونتي حتى أنجح استغربت، فسألتها ماذا تبدل؟ أنا هي نفسها تهاني الشر الأكبر! "لم يتغير شيء، لكن أمك رحمها الله تطاردني في أحلامي موصية بك، لا أعرف ماذا بيدي لأفعل، لكن أنت من الآن لست وحيدة سأحاول مساعدتك حتى تصلي إلى بر الأمان، قولي إن شاء الله ما ينقلوني من المدرسة".. بكيت فرحاً أن أمي لا تزال تفكر في سأمتحن وأصير البنت التي كانت تود أن أصيرها لا أعرف هل كانت تعدني لشيء أم أنها لم تخطط لمصيري ومستقبلي، لم تكن تتوقع أن تموت، بل كانت تعدني لخدمتها عندما تكبر ليتها كبرت كنت خدمتها، فقد كانت أمي بحق، نعم لم تولدني من بطنها إلا أنها أعظم من تلك التي تركتني في شوال خيش قديم في كوشة.. عاد أخي فأخبرته بمجيء المعلمة ووصية أمي.. أدمعت عيناه، ولم يزد قولاً غير: "خير ارجعي أصلا قعادك في البيت ما كان عاجبني".

عدت إلى المدرسة بنتاً ثالثة، لست تهاني الأولي ولا الثانية، أنا

البنـت التـي تريـد أن تنجـح لتفـرح أمـي في جنتهـا لا أنـا البنـت التـي يجـب أن تنجـح لتصـير نفسـها.

اليـوم الأول بعـد عـودتي كان الأصعـب، أعـرف أن الجميـع يكرهني، أو هكـذا اعتقـدت وأنـا الأخـرى أمقـت بعضهـن إلا أني سـأتغافل عـن كل شيء لأنجـح أو أحـاول أن لا أفشـل، جلسـت في الكنبـة الأخـيرة بطبيعـة الحـال رغـم قـصر قامتـي. البنـات تركـن بينـي وبينهـن مسـاحة لم تقـم إحداهـن بتقديـم واجـب العـزاء إلا أن بعضهـن ينظـرن لي نظـرات توحـي بأنهـن يـردن مواسـاتي.. لم أهتم، ماتـت أمـي مـاذا أفعـل بالصديقـات؟!

قبـل نهايـة اليـوم أخبرتنـي المديـرة أن عـليّ إحضـار أخـي غـداً لمقابلتهـا خفـت هـل سـيقبل؟ أعـرف أنـه يكرهنـي هـو الآخـر إلا أن حالـة الحـزن هـي مـا جعلتـه عطوفـاً معـي، قلـت حـاضر، وفي نفـسي شـك كبـير، بأنـه يهتـم في الغالـب، وقـد كان، هـز كتفيـه، لم يـرُد عـلى قـولي.. عـدت مـن المدرسـة وجدتـه يشـاهد التلفـاز، دخلـت المطبـخ لأعـد الأكل إلا أنـه نـاداني تعـالي أقعـدي، جلسـت، أشـار إلى كيـس في المنضـدة، فتحـت وجدتـه أحـضر لي سـاندوتش كفتـة وعصـير، فرحـت وسـألته: "أهـو لي؟".

ابتسـم بخبـث أعرفـه "نعـم هـو لـك"، سرحـت كانـت أمـي تـأتي لي بـه كلـما ذهبـت إلى السـوق مـن أفخـم مطعـم في نواحـي المدينـة، ليواصـل دون أن يرفـع بـصره عـن الشاشـة، أنـا عـاوز أجيـب مـرا، نظـرت لـه بهلـع ليواصـل "قصـدي سـأتزوج إحداهـن" لتخدمنـا سـوياً، أو عـلى الأقـل تخدمنـي أنـا وتونسـك في غيـابي، قعادنـا مـع

بعـض، قالـوا مـا شرعـي ونـاس الشـؤون حيشـيلوك يـدوك لأسرة بديلـة لـو مـا عرسـت سريـع.. سـأحضر البنـاء غـداً ليقـوم بفصـل البيـت لا أريـد مشـاكل معهـا". قلـت لـه "سـأكون وحـدي؟".

لا، سأفصـل البيـت وأتـرك الثلـث مـن نصيبـك لنسـتأجره حتـى تعيـشي منـه، وسـأفصل لـك حجـرة تفتـح في بيتـي، إلى أن تكـبري قليـلاً، سـأزوجك وتسـكنين في بيتـك، وعنـدك بيـت ومعـاش، حبـة عوجـة مـا بتجيـك..

"برأي؟".

لا، حتكـوني معانـا، لكـن حقـك مفصـول تأخـدي راحتـك، ولـو جـو نـاس الأسرة يلقـوا وضعـك لـن يأخـذوك.. ح أفصـل ليـك الأوضـة وافتحهـا في الزقـاق". سرحـت أي راحـة قـد أخذهـا وأنـا صغـيرة مـاذا إن خفـت أو مرضـت؟ كيـف سـأدخل؟ هـل سـتحبني زوجتـه سـتعرف قصتـي وأننـا لسـنا أخـوة؟ هـل يعـرف بممانعـة سـيد الزريبـة في تـرك المنـزل! هـززت "كفـى»، بـلا مبـالاة، ليقـول "مـاذا تعنـين؟".

"أخي لم أتحدث؟"

"هززت كتفيك؟".

لا، وقبـل أن أجيـب يقاطعنـي: "شـوفي انتـي أصـلاً بـت حـرام أنـا عارفـك وعـارف مشـاكلك قبـل تمـوت أمـي أخبرتنـي، كيـف كان وضعـك في المدرسـة".. عـاد أخـي الـذي أعرفـه، فقـد كان يتلبسـه مـلاك طيـب الآن عـاد شـيطانه غالبـاً سـيريني الويـل وعقـاب الليل

كـما تقـول معلمـة الإنجليـزي.

قلـت ببـطء "لـو سـمحت أرجـوك أرح معـاي للمديـرة شـأن عـاوزة أمتحـن لـو مـا جيـت معـاي قالـت لي ماتجـي".

"خـلاص بكـرة بجـي المدرسـة طـيري مـن وشي". طـرت مـن أمامـه وقلبـي يرقـص فرحـاً حـدث المسـتحيل.. لا أنكـر، تـأثـرت أن لا أهـل لي وأمـري تديـره الشـؤون، لكـن سريعـاً أخرجـت الأمـر مـن رأسي ليـس بيـدي شيء لأفعلـه لأغـير الحـال.

تبخـرت أحلامـي الصغـيرة مـع مقابلـة أخـي للمديـرة أخبرتـه في حضـوري طبعـاً أن لا أوراق تسـجيل تثبـت تسـجيلي في المدرسـة، أيـن درسـت في السـابق؟ ليقـول "سـجلناها مـن بدايـة تعليمهـا في سـنة أولى هنـا ودرسـت وكانـت أسـتاذة زينـب مرشـدة الصـف. نعـم لهـا نتائـج عليهـا ختـم المدرسـة ومشرفـة الصـف، وكانـت تعطـى نتائـج عـدا العـام المـاضي"، قاطعتـه "خـلاص امـش طلـع ليهـا رقـم وطنـي مـن بـدري عشـان تحصـل الدفـع هـدي تمتحـن أصـلاً تهـاني دي بلـوة اللـه ابتلانـا بيهـا". نظـر لي طويـلاً ثـم قـال بهـدوء "إن شـاء اللـه بطلعـوا ليهـا وتجـي تمتحـن، مـا عشـان هـي بلـوة، عشـان مـن حقهـا تمتحـن زيهـا زي غيرهـا». رأيـت الغضـب في وجـه أخـي إلا أنـه لم يـزد مـن حديثـه معهـا عنـد خروجنـا، قـال "فعـلاً انتـي بلـوة عـلى كل زول خـلي المدرسـة اللـه يرحـم أمـي ويسـامحها غايتـو!".. مـات قلبـي فلـم يعـد حديـث أخـي يصيبنـي بالعلـل، كـما السـابق، هـو كلام عـلى أي حـال لا يعـبر عـما داخلـه حقيقـة وإلا مـا سـبب اهتمامـه بأمـري وعـدم تـرك

الشـؤون تأخـذني وترفقنـي بهـا! اسـمي واسـم أخـي مختلفـان صفعنـي التحـري ليقـول أخـي نعـم هـي بـت أمـي وأمـي ماتـت ألقـى إلينـا الملـف بـكل صلـف بنـبرة اسـتعلاء لأ حـد لهـا "الملـف ناقـص"، ودون أن يخبرنـا كيـف نكملـه.. ذهبنـا وأخـي لصديقـه عسـكري ليدلنـا عـلى الطريـق إلا أن الآخـر صفعنـا مـرة أخـرى "أمـك كانـت متبنيـة تهـاني بـورق رسـمي؟ منزلاهـا في اسـمها؟".

لم أعـرف مـاذا يعنـي إلا أن أخـي أجابـه "نعـم لدينـا مسـتخرج وملـف"، صبـاح الغـد للمـرة الثانيـة ذهبنـا لاسـتخراج الرقـم الوطنـي بعـد اصطحـاب رئيـس اللجنـة الشـعبية شـاهداً وملـف أصفـر اللـون لأول مـرة أراه أيـن كان، لا أعـرف، المهـم في الأمـور أنـه لم يسـتخرج لي رقـم وطنـي ذلـك اليـوم، وبالتـالي تُعـدُّ عـودتي للمدرسـة مـن المسـتحيلات والأسـوأ مـن عـدم اسـتخراج الرقـم الوطنـي تمسـك أحـد المتحريـن بـضرورة إحضـار أحـد مـن الرعايـة الاجتماعيـة وحمايـة الأسرة والطفـل، انسـحبنا وأخـي، لم يعلـق أحدنـا بكلمـة، لكـن أخـي يسـب في الديـن إلى أن وصلنـا، قبـل ذلـك قـال "أنـا تـاني ورديـاتي ليـل"، أحسسـت بلسـاني في حلقـي والغريبـة دموعـي لأول مـرة يتسـاقطن ليقـول مـا تبـكي ح أعمـل شـنو أنـا دا شـغلنا الماكلنـا عيـش أكلـم ليـك حسـن سـيد الـدكان تنومـي مـع مرتـه ولّا تجـي هـي تنـوم معـاك أصلاً راجلهـا بكـون في بيتـه التـاني أغلـب الوقـت مـا تخـافي أساسـاً لـو جـاك زول داخـل بخـاف منـك، مـا العكـس. بقـدر كراهيتـي لأخـي ولعشـيقته بقـدر مـا راودتنـي رغبـة الانتقـام منهـا مـرة أخـرى، وإخبـار زوجهـا، إلا أني تراجعـت، أخـي هـو الوحيـد المتحمـل وجـودي، فلتـأت

للمبيت قريباً سيتزوج وتخرج من حياتنا إلى الأبد لأول مرة منذ وفاة أمي يأتي المغرب وأكون وحدي لا أستطيع حمل السرير للخارج، حاولت وفشلت تماماً، قوتي خذلتني، عملت شاي المغرب كعادتني وأحضرته ووضعت الثلاثة كبابي كما في السابق شربت وحدي وأدخلت الأواني دون الاهتمام بوضع باقي الشاي في البراد. أخي أخبرني أنها ستأتي باكراً فقلت أسخن لها الشاي كما أوصاني بصنعه لها، إلا أنها تأخرت حتى لا أعرف متى حضرت صحوت على أحد ما ينتهرني قومي يا تهاني قومي يا بت قفزت فزعة لأجدها قائلة: "يا بت ما مرقت السراير مالك".

"تقال ما قدرت"

"وزمان البمرقن معاك منو؟»

"أمي"

وبعد ماتت"

"أخوي".. ضحكت ضحكة تشبهها تماماً صفراء خبيثة حامضة لتقول: "قلتي لي أخوك سمح أرح النمرق معاك الفرش".. أخرجتهن وعزمت على إخبار أخي عن تأخرها في المجيء، ونمت قبل أن أستمع تماماً لباقي حديثها الشاي رفضت شربه قائلة "بحميني النوم". كانت تندب حظها على ما أظن يصل إلى حديثها من مكان بعيد جداً. مرّ اليوم الأول لعمله، تأخر أخي فلم يأت إلا الصباح رغم قوله إنه سيأتي الساعة الرابعة، استيقظت وجدت فراشها خالياً تحيرت فيها، تكون خرجت من

الحائط الفاصل بيننا، المهم أنها ذهبت استيقظ أخي أحضرت الشاي، فقال لي "داير أوديك لزولة بتشتغل خياطة تعلمك ولّا ماعاوزة، فترة بسيطة إلى أن تحل مشكلة الرقم الوطني، اتكلمت أمس مع اللواء وعدني خير، لكن خلال الأسبوع دا لو منعوك المدرسة أحسن تمشي ليها ولّا ما عاوزة؟".

"بت علي جيران ناس حسن سيد الدكان، قالت لي بدل تكوني قاعدة في البيت تعالي نضفي لي وبديك يوميتك".

"قلتي ليها شنو؟".

"ما قلت، قالت لي اسألك كان رضيت بمش اشتغل".

"انتي لساتك شافعة بتقدري تشتغلي شنو؟".

"خليك في بيتك عاجبك تشتغلي شغالة؟".

"لا!"

"انتي أحسن منها عندك بيت هي مأجرة البيت الساكناه دا وتقول ليك تعالي اشتغلي؟ مرا حيوانة"، انفعال أخي أعجبني بدت ثقتي فية تعود إلى قليلاً قليلاً لكن ينتفض جسدي في كل مرة نكون قريبين لبعضنا.. "يوم الجمعة الجاية ماشي أعقد على واحدة بتونسك إن شاء الله تطلع بت حلال رشحها لي زميلنا صاحبة أخته، أمها وأبوها ميتين، لكن بت حلال ما زينا".

"كيف يعني؟".

"لا ما تشغلي بالك قصدي أنها طيبة، قالوا"

"سمح بتسوقني؟".

"أي بسوقك وبمش معاك السوق تشتري لبس كان دايرة".. ولأول مرة أرى أخي يبكي. "تعرفي ما عندنا زول أنا وانتي بس؟".

"أمي كان حية كنا بنكون كتار يلا الله راد، الحيطة ما بنيتها، قلت ما تكوني براك داير أسوقك المحامي أسجل ليك حقك عشان كان مت".

"ما تموت ما دايرة حاجة بس خليني عايشة معاك ماتطردني".. "لالا، بتعيشي معاي في حقك الخلتو ليك أمي، ما تشيلي هم، لكن باكر نغشى المحامي".

الغريب أن أمي أوصت لي بنصف البيت، أكمل أخي إجراءات تسجيل البيت استغربت، فأسكتني، صرت أمتلك منزلاً، وهو لا يملك شيئاً، استغربت لفعله، لكن ربما أراد أن يعوضني ما فعله بي سابقاً عفوت عنه حتى وإن لم يترك لي منزل أمي الآن، إلا أني لا زلت وحيدة، لا يهم، قسم أخي البيت إلى ثلاثة أجزاء الجزء الأكبر خلفي استأجره والغرفة والصالة والمطبخ وحمام تركهما لي، وفصل غرفة وصالة وترك بينهما نفاج قد يكون بناها لنفسه، يقول إن سيد الزريبة قرب يخرج من البيت سيأخذ ذلك الجزء ويضيفه لسكنه استأجره وغرفة صغيرة،

نقـل كل أثـاث مطبـخ أمـي وأشـياءها في بيتـي يبـدو الأمـر غريبـاً إلا أنـه حـدث فعليـاً، صـار لي منـزل يأوينـي وإيجـار أعيـش بـه وتـرك أمـر زواجـه كـما يبـدو، إذ لم يـأت عنـه بخـبر، وعندمـا سـألته نظـر إلى طويـلاً ولم يقـل غـير: "ربـك يهـون إن شـاء اللـة البـت، القلـت مسـكينة قالـت مـا عـاوزاك في البيـت، قبـل تجـي ختـت شروط، تركـت الأمـر، وسـجلت لـك البيـت حتـى لا تـأتي أخـرى تطلـب مثلهـا، لا ونعتنـي خالهـا بـأني ود حـرام لا أصـل لي والعـرق دسـاس".

"كيف دساس؟».

"لا أعـرف، المهـم أنهـم رفضـوني تخيـلي البـت كانـت حابـاني حـب شـديد أهلهـا أثـروا فيهـا؟، سـأنتظر قليـلاً وآتي بسـت سـتها".

# 10

لم يكن خبر سفر سالم خبراً عادياً، فلم يكن رجلاً عادياً، نعم كان آخر رجل في أسرتي لم يكن آخر رجل، بل كان آخر فرد في أسرتي، كان كل ما تبقى لي أعرف أني نحس وشؤم على أسرتي خاصة وعلى الكل، لكن لم أتخيل أن أخي سيموت حتى وأني لم أتخيل أني قد أحزن عليه وأفتقده، اكتشفت بعد ذهابه أني سامحته، ماذا لو كنت أخبرته بأني أعرف أنه هو من قام بالاعتداء عليّ تلك الأمسية! وهو السبب في أن تصاب عيني ومن ثم أفقدها، هو وليس أحد آخر، تذكرت ذلك اليوم قبل سفره أوصاني بأن أغسل له ملابسه، ففتحت خزانة ملابسه

التـي طالمـا أغلـق أبوابهـا جيـداً في وجوهنـا، لم أجـرؤ عـلى لمـس شيء، فقـط وقفـت أنظـر عـليّ أكتشـف مـاذا يخفـي طـوال هـذه السـنوات لا شي ملفـت، يضـع القمصـان بعنايـة تامـة والبناطلـين في الـرف التـاني بعنايـة أكـثر، لا شيء ملفـت غـير الترتيـب والترتيـب الشـديد، يحتفـظ بمجموعـة مـن العطـور المتشـابهة، يحتفـظ بزجاجاتـه الفارغـة، قنينـة عطـر واحـدة مختلفـة، تقبـع في مـكان بعيـد عـن البقيـة، مـددت يـدي لأراهـا جيـداً أتـاني العطـر مـن مـكان بعيـد، نعـم هـي نفـس قنينـة العطـر التـي كان يحملهـا في يـده وألقاهـا عـليّ مـا زالـت تحمـل بعـض آثـار دمـاء أو لـون يبـدو كأنـه دمـاء حملتهـا لأخـبره أني أريـد أن ألقيهـا في المرحـاض، فقـال بفـرح: "افعـلي"، يحـب النظـام منـذ أن فتحـت عينـي عـلى وجـوده، وعـدني أنـه سـيعود حالمـا يكمـل العام وقـع عليـه الاختيار مـع فرقتـه في الجيـش في الذهـاب لليمـن لم يسـتمع لنحيبـي، ولا لتحذيـرات أصدقائـه ومحـاولات ثنيـه، كان يقـول الفرصـة دي أي جيـاشي يفتـش عنهـا، يـا مـت وأهلـك عاشـوا، ياعشـت واسـتمتعت بالمـال، قلـت لـه "لسـنا بحاجـة للـمال!!".

بـل بغايـة الحاجـة رفضـت مرتـين لـو كنـت أملـك المـال لمـا رفضني أحد..

"سأرحل وأعود تكوني أتممتِ خمستاشر عام وأزوجك"

"لا أريد".

سأشـتري لـك هاتفـاً جديـداً لأتمكـن مـن الاتصـال بـك، حياتـك حتكـون كويسـة، مـا تخـافي، كل الأشـياء مرتبـة لـك جيـداً أوعـى

تصيعـي وأنـا مـافي، مكلـم نـاس يجيبـو لي خـبرك، ولـو عرفـت أنـك عـدتي لصبينتـك تلـك سـآتي لأقتلـك وأعـود".. ابتسـمت، ليقـول بغضـب "يـا زفـت أنـا جـادي".

لا يسـتمع لي كعادتـه، أنـاني حتـى في بحثـه عـن المـال، يبحـث عـن نفسـه، تركنـي وحيـدة بعد أن أكمل تسـجيل البيـت اطمأن على كل النواحـي الماديـة في فـترة غيابـه، تمكـن اللـواء مـن تقديم المسـاعدة في اسـتخراج الرقـم الوطنـي وأخـيراً قبـل سـفره صـار لي رقـماً مدنيـاً مـاذا أفعـل بالبيـت وحـدي، كيـف لبنـت عمرهـا أربعـة عـشر عاماً أن تعيـش وحيـدة يجاورهـا سـيد الزريبـة معـروف بدنـاءة أخلاقـه وطمعـه في بيتنـا مـن يحمينـي في غيابـه، لم تنفعنـي توسـلاتي بـل زادتـه تصميـماً، ذهـب يبحـث عـن مـال يجـبره في عـدم وجـود الأهـل، قسـم البيـت إلى نصفـين تـرك لي الجـزء الأصغـر وأجـر الجـزء الباقـي لرجـل كبـير في العمـر وزوجتـه وحيـدان يسـاعداني وأسـاعدهما الإيجـار وراتبـه وأجـرة زريبـة الحطـب، قبـل أن يغـادر صحبتـه لفرقتـه فـأوصى براتبـه لي، ثـم ذهـب بي إلى المجمـع، حيـث يمكننـي شراء مسـتلزماتي بأسـعار زهيـدة وصديقـه عمـر يـأتي إليّ حامـلاً اللـبن كل يـوم المسـاء، وهـو في طريقـه لبيتـه، لا أعـرف كيـف قـد تسـير حيـاتي فعـلاً بعـد رحيلـه وقبـل رحيلـه بـدأ الفـراغ والوحـدة يتسربـان بقـوة لي، فكـرت في شراء الصبغـة، وإنهـاء حياتي، لكـن خفـت أو أن جـزءاً منـي رغـب في العيـش، فـألقيـت بهـا في (حفـرة) أو الحـمام البلـدي في نهايـة البيـت رويـداً رويـداً، بعـد رحيلـه تبدلـت حيـاتي، وكأنـه قصـد وضـع حـرسٍ أمـام بـابي، فـكان بـابي يمـر عـبر نصفهـما المسـتأجر، كلـما أردت الخـروج يسـألني

منتهراً "ماشة وين يا بت؟".

تضحك زوجته قائلة "امشي جيبي حاجتك سريع وتعالي"، قليلاً قليلاً مع الأيام صرت أذهب إلى المتجر برفقة زوجته، صرنا كأم وابنتها، كنت أعرف أنها تصطحبني لتشتري باسمي من متجر الأسعار الرخيصة، حتى وأن طبيخنا صار حلة واحدة، نقتسمها في الغالب أنا من تقوم بدفع ثمنها نشأت بيننا علاقة غريبة، لكنها كافية لتجعلني أشعر بالامتنان لم يتخل أخي عني بل أتى لي بأسرة بديلة، كان الرجل في بدء إقامته صامتاً إلا حين يجدني أهم في الخروج يعلو صوته منتهراً يحمل دوماً كتاباً يطالع فيه.. كانت زوجته طيبة وإن بان عليها أثر العمر والهم، أستيقظ صباحاً لأجدها وضعت لي براد الشاي في طرف المنضدة، أنهي واجباتي اليومية، وأذهب لأساعدها في نظافة منزلهما، منعتني الغسيل، فكانت تأتي إليها امرأة لتغسل وتقوم بالواجبات التي لا أتحملها هي أكثر رأفة بي من أخي حتى وأنها تشبه أمي في حنيتها واستماعها لي، في الأيام الأولى أنهض باكراً لأعد الشاي أجدها سبقتني ووضعته، فبادلتها على حياء جميلاً بجميل، حملت فطوري على استحياء لآكل معهما رحبا بي وقطع الرجل بقوله مافي داعي كل زول يعمل حلة ملاح براه، تعالي أكلي معانا واتقسمن الخدمة الما بتقدري على خالتك تعملها والبتقدري على ريحيها منها، وقد كان نادراً ما أقوم بالطبخ حتى في زيارتهما لأهلها تصطحبني بمحبة، زوجها لا أهل له، كما أظن، لعله وحيد مثلي، فلم أر أحد يقوم بزيارته أو السؤال عنه طيلة فترة غياب أخي،

ولا يتحدث عنهم، أحياناً يبدو غاضباً بلا سبب، فيقوم بسبي ولعني بل وطردي من بيته، إلا أن العجوز تسارع خلفي لترضيني باكية فأقبل، كنت أقبل بأقل من الشفقة منها مع مرور الأيام نشأت بيننا علاقة لعلها محبة، لم تكن شفقة، فسبق وخبرت ماذا يعني أن يشفق عليك أحد.

الآن تبكي لمجرد غضبي وتخاف من عواقب كسر الخاطر وتجتهد لجبر خاطري وزعلي من العجوز.. يا للحظ العظيم، ربما تكافيني الحياة مرة أخرى بعد رحيل جميع رفاقي بالموت والهجرة، رغم ذلك انكمش على عواطفي وأنكفئ على نفسي حتى لا يعلمان بها ويعرفان نقطة ضعفي، فيستغلانها، في أكثر الأوقات كان يمضيها يقرأ كتاباً، لا أعرف ما به، إلا أنه في يده أغلب الأوقات في يوم سألته "بتقرا في شنو انت؟".

"انتي بتقري في سنة كم؟"

"ما بقرا خليت المدرسة".

"ليه خليتيها، تلقيك (بليدة) خلقتك دي ما خلقة شطارة".

صمت، أغضبني الرجل بقوله، يشتمني وهو ليس إلا رجل يستأجر بيتي، وأقوم فوقها بدفع غالبية تكاليف أكله وشرابه.. رجل حقير، تمتمت ليرفع صوته "حقير منو يا بت الكلب؟». لأقول "صاح أنا بت كلب عشان مشى خلاني وما عندي اسم، عشان كدا ما قدرت يطلعوا لي رقم وطني إلا بواسطة! صمت صمتاً أخافني ليقول لي "خلاص قومي من هنا يلا على بيتك من بكرة بعلمك القراية والكتابة لمن أخوك يتم الحول،

ويجـي تمتحنـي تامنـة عشـان مـا تحتاجـي لـزول!".

تغـيرت نـبرة الرجـل، بهـا دفء يـأتي مـن بعيـد أو ربمـا هـي شـفقة أو يكـون يعـرف قصتـي!

بـدأت تنشـأ حالـة وجدانيـة لا مسـمى لهـا، قـد يكـون دفء الأب الـذي لم أعرفـه، بـدأ العجـوز في تعليمـي بـكل جديـة، اصطحبنـي لسـوق الكتـب المسـتعملة في البوسـطة أم درمـان.. اشـترى كتابـاً واحـداً، وعنـد اعـتراضي قـال لا داعـي للعجلـة عندمـا نكملـه، فلـن نحتـاج إليـه نعيـده لنأخـذ غـيره، وقـد كان. بـدأ بعزيمـة أكـثر منـي، في الأول لا أنكـر حتـى الكلـمات لا أسـتطيع قراءتهـا جيـداً، ثـم بـدأت اسـتهجأ وأخـيراً بـدأت أقـرأ، فأحـضر الكتـاب الثـاني بعـد اصطحـابي للمـرة الثانيـة للسـوق، أكملنـاه أسرع مـن الأول، اسـتمر شـهراً بعـد شـهر، نكمـل كتـب اللغـة العربيـة لنـأتي ببديلة، درسـت جميـع كتـب صفـوف مرحلـة الأسـاس إلى أن وقفنـا في كتـب الصـف السـابع، كانـت معقـدة بـل صعبـة، إلا أنـه لا يعـرف معنـى صعـب، بـل كان ملـماً بقواعـد النحـو، فيقـوم بتدريـسي مـن رأسـه، حـين أندهـش، يخـبرني: "كنـت طالبـاً مميـزاً وأكتـب الشـعر".

"من رأسك؟".

يجيب بإيماءة تعني انتهى الدرس يا غبية

اسـتطاع الرجـل تعليمـي القـراءة والكتابـة صـار في مقـدوري الآن قـراءة مـا كتـب عـلى الملـف الأصفـر في حزانـة أخـي لم يتبـق إلا عـودة أخـي لأعـود لمقاعـد الدراسـة بعـد انتقـال دفعتـي للمرحلـة

الثانويــة صبــاح أحــد الأيــام أيقظتنــي اللعجــوز باكــراً لتقــول "جهــزي نفســك ماشــين دكتــور العــين"، تفاجــأت "لمــاذا؟".

"العجوز! أتستطيعين سؤاله؟".

تعجبــت وكرهــت الرجــل أكــثر مــما كنــت، يتخيــل نفســه ولي أمــري؟ عجــوز وقــح فعــلاً هــو مســتأجر لا أكــثر رفعــت يــدي رافضــة قرارهــما لــن أدع أحــد يتحكــم في حيــاتي، أنــا الآن أبلــغ أربعــة عــشر عامــاً بالتــمام والكــمال، هــل ســأخضع لإرادة عجوزيــن غبيــين، أســكنهما أخــي بجــواري! لــن أفعــل وصحــت "مــا ماشــة مــكان اذهبــا بمفردكــما". ليــأتي إلى مــن بعيــد صيــاح الرجــل وســبابه، غضــب إذن. يــا لفرحــي! أخــيراً تغلبــت عليــه قبــل أن يكمــل فرحــي اقــترب صوتــه مــن بيتــي، وكان في العــادة لا يــأتي بــل يرســل دائمــاً العجــوز الأخــرى، بمــا يريــد قولــه أو ربمــا تتعمــد هــي حمــل رســائله، لعلمهــا بطبــع أجهلــه فيــه ربمــا ســيضربني! ابتســمت، ليدخــل هــادم اللــذات صائحــا "يــا بت يــا قليلــة الأدب.. يــا بــت الكلــب البــسي حجزنــا ليــك مــن الأســبوع الفــات".. أرد في سري "عجــوز حقــير" ليقهقــه عاليــاً "حقــير أبــوك البــسي سريــع خلينــا نكســب الزمــن!".

عــلى مضــض ذهبــت معهــما أو برفقتهــما لأتفاجــأ بأنهــما قــاداني لمشــفى عيــون شــهير جــداً، لفحــص عينــي بــدا الطبيــب بلبــس قفاز ليــده، ثــم تنــاول مصباحــاً صغــيراً، وقبــل أن يفتــح عينــي ليفحصهــا ودون مقدمــات عــاد الألم، وكان قــوة خفيــة حركــت عينــي،

صرخت بأعلى، صوت «أمي الدم أين أنتِ أمي تعالي عيني"، وخزتني بألم غريب، شعرت بالدم لثاني مرة يتدفق، فصرخت "الدم الدم" لم أعِ بالعجوزين يبكيان. في محاولة لإسكاتي أسرع الطبيب خارجاً وعاد برفقته آخرون لا يحسون بألمي، غطيت عيني بقوة لحمايتها أو للتخفيف، حاول الجميع إزاحة يدي الملتصقة تماماً بالعين، ولم يفلح أحد، لم أقصد، لكن حدث ذلك تماماً التصقت يدي بعيني لو أزاحها أحد ستقتلع من مكانها، دافعت عن وجودها بقوة جسدية غريبة، وواصلت الصراخ «الدم الدم».

يا بنتي مافي دم! واصلت البكاء والألم يزداد وتكثر جمهرة الأطباء حولي، أحضر الطبيب الشاب حقنة أظنها مسكناً ما إن انتهى من حقني بها حتى هدأت وبدأ الألم تدريجياً يخف إلى أن زال ويدي عادت إلى طبيعتها، وتمكنت من إزاحتها عن عيني، وأنا أنتحب ليسألني أحدهم سؤالاً مباشراً: "متذكرا الحادث الفقدتي فيه عينك؟".

"لا أذكر بالتحديد لكن تأتي إلى عقلي خيالات، لا أذكرها جيداً، لكن أرى أخي سالم وهو يتشاجر مع أمي بسبب ضربي لي بالوصلة ورماني بقنينة عطر كان يحمله".

"هل ضربك مباشرة بها؟".. "لا أذكر"، حتى ما قلته لك الآن أخبرت أمي عنه سابقاً فضحكت عليّ واتهمتني بالخرف..

"انتي بت عاقلة وكبيرة ما عارف هل ما سأقوله لك الآن كاف أو لا، لكن لا يوجد بالعين ما يؤلم، فعلاً فقدتي عينك لكن

العمليـة التـي أجريـت لـك كانـت ناجحـة، مـا تعـاني منـه فعليـاً ليـس بسـبب العـين، إنمـا بسـبب آخـر".

والآلام؟

أوصى الطبيـب العجـوز بعـرضي عـلى طبيـب نفـسي لتقييـم وضعي النفـسي والذهنـي، ثـم العـودة بي إليـه، لأن إصابـة العـين صحبتهـا صدمـة نفسـية حـادة. أضـاف ملاحظـة في أوراق تحويـلي.

حالـة خاصـة ينصـح بمعالجتهـا عـلى حسـاب المستشـفى! قـرأ العجـوز الملاحظـة وعلّـق "أيـوة عشـان الطـلاب يتعلمـوا فيهـا؟".

"لا لا، عشان يتعلم منها طلابنا، فهي حالة غريبة ونادرة".

عدنـا أدراجنـا، كل منـا يبـكي لسـبب خـاص بـه، أذكـر أمـي في آخـر مـرة شـعرت فيهـا بـالألم الشـديد، ليتهـا معـي، بـدأت أنتحـب بحرقـة لتنتحـب العجـوز معـي، وهـي تضـع يدهـا عـليّ، ليتهـا ربتـت عـليّ وأخذتنـي في حضنهـا بـدلاً عـن ذلـك، وصلـت البيـت وأنـا في حالـة حمـى، ويرتجـف جسـدي بطريقـة غريبـة، دثرتنـي العجـوز بالغطـاء، وذهـب الرجـل أحـضر صديـق أخـي ليحـكي لـه مـا حـدث، فـأخـذاني للطبيـب النفـسي الـذي عـادني في حيـاة أمـي، نعـم صديـق أخـي يعـرف ماضيـي، حمـل معـه مغلـف أصفـر باهـت قدمـه للطبيـب.

لا أرغـب في تذكـر حادثـة فقـدان عينـي، قـد يكـون لـضرب سـالم لي بقنينـة العطـر سـبباً في فقـد العـين، كـما يقـول الدكتـور، فقـدت العـين في حـادث حـاد، عفـوت عـن أخـي، فلـم يكـن يقصـد أن

يؤذيني رغم ضربه لي بالوصلة أولاً، ثم حين هربت منه رماني بقنينة العطر، لتصيبني مباشرة في عيني.

تغيّر العجوز معي بطريقة مزعجة، نعم شعرت بعطفهما عليّ لكن كبلا حركتي، سرقا حريتي، لا أخرج إلا مع أحدهما فعلياً، تناوبا على حراستي، أخبرتني الهجوز أن أخي أوصاهما بي، وهما يخافان أن أُصاب بمكروه في غيابه، طمأنتها بأن الألم في عيني ما هو إلا حالة غريبة، أتت إلي في حياة أمي مرة، وهذه المرة. غير ذلك أنا بخير اتركاني وشأني! شتمني العجوز الحقير كعادته ثم أحضر كتابه الوحيد، وتظاهر بأنه لا يهتم لأمري، وإنما يقرأ في كتاب ضحكت، وقلت بصوت خفيض جدي، ليجيبني بنهرة "مالك يا بت الكلب؟!" "انت تعرف أبي؟".

"من وين بعرفو؟ بعرفك انتي.. عرفة الندامة"..

"لماذا تواصل سبابه إذن؟ دع الرجل في حاله".

"أتعرفينه انتي؟».

لا.

"خليك في حالك".

"عارف لو أخوي ما رجع أنا بكون برأي في الدنيا دي؟».

"عارف".

"عارف أنه أمي في الأصل متبنياني أو وجدتني في كوشة الآن فيها منزل سيد أحمد زين العابدين؟".

"عارف".

"عارف كان عندي أخ اسمه معاوية مات؟".

"عارف، وكمان عارف أنه كانت سادس الشهادة الثانوية ومات في حادث وأسرة غير أمك استلمت قروش التعويض والمنزل الذي منح له!".

"بالمناسبة منو انت؟"

أنا قدرك وقدر أخوك".

"كيف؟»

"هكذا وضعني القدر أمامكما لأرعاكما سوياً».

"كيف؟"

"أرد برعايتك دين لأحدهم عندما يأتي أخوك سأتركك وأذهب في حالي، تعبت".

"اذهب الآن من يمسك بيدك؟".

"وجدتك تتمسكين بنا جيداً، لو ذهبنا سيطمع فيك الرجال وسيقتلك سيد الزريبة بكل برود، ثم يدفنك ككلب ميت، يخشى من رائحة نتانته لن يخاف من أحد، فلا أحد يشك فيه لو كنت صاحب مصلحة لنصحت أخاك ببيع البيت ثم شراء منزل آخر في مكان جديد لا يعرفكما فيه أحد ولا يهتم لأمركما المتطفلون!".

"اغلقي فمك ستدخل لك ذبابة، دعي عنك الاندهاش، فكل

الحيـاة مـا هـي إلا مواقـف غـير متوقعـة تذهـب بنـا إلى مواقـف أخـرى".

الآن كشـف العجـوز أوراقـه، وعرفـت مـن أيـن يسـتمد قوتـه وحقارتـه، يقصـد أن يذلنـي، ولـن يسـتطيع، لكـن مـن أيـن يعـرف تفاصيـل حيـاتي؟ فقلـت "جـدي!".

"أعـرف، حتـى أنـك تنعتينـي بالعجـوز الحقـير! أقـرأ أفـكارك جيـداً وعرفـت أسرارك مـن عقلـك، اسـتطعت الدخـول إليـه وسـحب الأسرار ثـم خرجـت منـه!".

أخافنـي الرجـل، هـل فعـلاً يقـرأ أفـكاري أم أنـه سـمع مـا قلـت ليقـول قـرأت أفـكارك!

بـدأت بعـد ذلـك أحـاول ألا أفكـر أمامـه في شيءٍ، بـل آتي إليـه وذهنـي ممتلـئ بأفـكار الأكل.. بـدأت أدرب نفـسي حتـى لا يعـرف في مـا أفكـر، فيتركنـي وشـأني.

بـدأت أألـف مشـاهدة نسـاء الحلـة وهـن يأتـين لزيـارة الجـدة وشرب القهـوة، بـل صـار بيـت أمـي مقـراً نهاريـاً لقعداتهـن، أحيانـاً أشـارك في الجلسـات وأخـرى لا أذهـب إلا لتقديـم واجبـات الضيافـة، حتـى العجـوز يـترك لهـن الحريـة في الدخـول والخـروج متـى أردن ذلـك، كان يكـره امـرأة حسـن سـيد الـدكان، فـكان دائم الشـجار مـع العجـوز في مجيئهـا للبيـت، تقـول العجـوز لا تسـتطيع أن تمنعهـا، ويهـدد كل مـرة بأنـه سـيقوم بطردهـا، ابتسـمت مـرة أثنـاء شـجارهما، وأنـا أتذكـر قصصهـا في السـابق مـع أخـي لـيرد عـلي "قـصة شـنو مـع أخـوك؟".

"لا شيء هي فقط ذكريات، فليحكيها لك هو إن شاء".

"يا بت الكلب يحكيها لي من قبره؟".

غضبت غضباً غريباً، كان معاوية بعيداً عن شبهات النساء خاصة أمثال امرأة حسن، كان أفضل بشر يمشي على الأرض، وإن جن باكراً إلا أنه كان أحن أهلي علينا أنا وأمي، فقلت "معاوية كان زول كويس انت ما بتعرفه فما تتكلم عنه»

"حاضر أنا آسف ما قصدت إهانة، لكن بعرف المرا سلوكها ما مظبوط".

"كيف يعني؟».

"كدا وما عندك علاقة ما تتدخلي، أنا بتكلم مع مرتي، طيري بيتك تطير عيشتك، حيوانة".

# 11

ازدادت ارتعاشة يدي اليسرى وصاحبها خمول في الرجل وتبعها كامل نصف جسدي الأيسر، وبدأت أشعر بحركات لا إرادية بوجهي، بدا القلق يتسرب إليَّ رويداً رويداً. أنظر للمرآة، فأرى وجهي طبيعياً، كما هو، لم يتغير، ثم أضعها لأعود بعد قليل لأنظر مرة أخرى لأتاكد أن وجهي لم يتغير، وأن عيني في مكانها لم تتوسط جبيني، فابتسم على خيالي الواسع، ثم أعود مرة أخر للنظر في المرآة، بدأت ألاحظ تحولاً طفيفاً لا يرى، حين أشرب الماء يتدفق خارج فمي، نعم كل الوساوس عاودتني مجتمعة، تخيلت نفسي في شدة المرض، ولا أستطيع

النهـوض لخدمـة نفـسي وحـولي لا أحـد. غـادر العجـوزان دون أسـباب، أتبـول في مـكاني وأقـضي حاجتـي وأنـا مسـطحة لا أقـدر عـلى شيء ولا حتـى تنـاول كـوب المـاء، فمـت مـن العطـش، نعـم مـت وحيـدة حتـى طيـف أمـي هـرب مـن حالتـي المزريـة تلـك، كانـت لا تقـرف منـي بـل تقـوم بغسـلي وغسـل ثيـابي، لمـاذا تقـرف روحهـا منـي! وجيـوش الذبـاب تتخـذني سـكناً وجـواري حافظـة المـاء ملأتهـا قبـل قليـل، أهـز رأسي سريعـاً لأطـرد مخـاوفي بعيـداً، لكـن سرعـان مـا تعـود بسـؤال جديـد وإن مـت مـن سـيقوم بإخبـار صديـق أخـي عـن مـوتي؟ قـد لا يكـون موجـوداً في ذلـك الوقـت، وقـد لا يفقـدني أحـد، حتـى زوجـة حسـن سـيد الـدكان التـي بعـد حملهـا ووضعهـا للولـد بـدأت في التقـرب إليّ، وأسـمت ابنهـا سـالم إلا أن العجـوز حـال بينهـا وبـين تكوينهـا علاقـة مـن أي نـوع معـي، لربمـا يكـون الولـد ابنهـا لسـالم ! فأظـل ميتـة إلى أن أتحلـل وتخـرج روائـح جسـدي النتنـة، فيقـوم سـيد الزريبـة بعـد شـمها بإخبـار الشرطـة التـي تـأتي للبيـت، ويضـع عناصرهـا كمامـات عـلى أنوفهـم، ويحملنـي بعـض أفرادهـا ويحفـرون لي قـبراً ويدفنـوني دون غسـل سريعـاً يكيلـون عـليّ الـتراب، لتغطيتـي، فتحلُّـلُ جسـدي حـال دون تكفينـي وحملـي عـلى بـرش وعنقريـب موضوعـين في الزقـاق الصغـير منـذ رحيـل أمـي يسـتعين بـه الجيران لحمـل جنائزهـم، ثـم يعيدونـه ليخـرج مـرة أخـرى لحمـل جثـمان آخـر عليـه، لا مسـك أو صنـدل يوضـع عـليّ، فأمـوت كـما يمـوت الطـير حتـى لا أُلـف إلا ببعـض الخـرق الباليـة، وربمـا يتـم تغطيتـي بثـوب أمـي الهـزاز يجدونـه قـرب وجهـي يحملـوني عـلى المرتبـة

التـي مـت فيهـا، ويلقـون بي في القـبر دون أن ينزلنـي أحـد ويوسـد رأسي حجـراً، أهـز رأسي بعنـف طـاردة للأفـكار التـي تتدفـق بصورة مزعجـة، وكأني أشـاهد فيلـماً، لكـن تتواصـل بقـوة. أرى ابتعـاد المـارة وانحرافهـم عـن شـارع المنـزل خوفـاً مـن روحـي التـي ظلـت حبيسـة فيـه، حتـى سـيد الزريبـة اشـترى البيـت المجـاور، وحـوّل مـكان عملـه وهـرب تـاركاً فيـه ابـن اختـه عامـلاً عليه، ليصـير بيت أمـي بائسـاً، لا حركـة فيـه. تفـرق أصدقـاء أخـويّ واتخـذوا مكانـاً جديـداً لسـهراتهم بـدلاً عـن اللسـاتك، يحتـل بدايـة الشـارع عربـة دفـع رباعـي مليئـة بالجنـود مجهـولي الجهـات الأمنيـة لا يضعـون لوحـات، يصـدرون الضوضـاء العاليـة بطرقهـم عـلى حـواف العربـة عنـد مـرور طلبـة الثانـوي بالشـارع، بيـت أمـي خـالٍ ينتظـر عـودة أخـي، تذكـرت عـلي رفيقـي في تلـك الأوقـات البعيـدة، لا أعـرف لمـاذا هـو دون غـيره مـن النـاس، فتخيلـت وجهـه محتقنـاً مـن البـكاء عـليّ، ويحـاول إخفـاء سـبب بكائـه ليـلاً، يضحـك عليـه أقرانـه لطالمـا رأوني شـيئاً، عكـس عـلي، كان يـراني إنسـانة، نعـم أخطـأت إلا أني بـشر تمامـاً، قطـع علاقتـه بي باكـراً ربمـا لـو لم أراوده عـن نفـسي ويحـدث مـا حـدث لظلـت صداقتنـا إلى الآن أخرجنـي صيـاح العجـوز مـن ملكـوتي لأرد عليهـا بحنـو لا يتناسـب وغضبـي عـلى زوجهـا نعـم؟ هـي الأخـرى اكتفـت بمناداتهـا وصمتـت.

سرت نحوهـا وكأني آلـة، أمرتنـي بتحضـير السـلطة، ففعلـت بإحضـار الغـداء، نفـذت بـلا تذمـر ودون حديـث، أكلـت بـلا صـوت ونهضـت بـكل استسـلام لإرداة جديـدة تأخـذني إليهـا حتـى اسـتفهام العجـوز عـما بي لم أسـمعه إلا بعـد تكـراره، فقلـت

"لست بخير، انظرا ليدي تزداد ارتعاشاً وأشعر بالخمول في سائر جسدي أخبرتهما بخروج الماء عن فهمي"، ليرفع العجوز ملابسه قليلاً كاشفاً عن قدمه ليريني رجله التي لا يشعر بها منذ زمن طويل، مبرراً ذلك لربما من مضاعفات السكري، ربما يكون حديثه صواباً وما بي إلا ضعف ونقص في جسدي، عليّ معاودة الطبيب في أسرع وقت، سألته عن أثر الجروح التي على رجله، فعاد سريعاً لإخفائها قائلاً "حادث".

تذكرت الآن، لا أعرف، لماذا قلت ذلك لينتهرني، ماذا تذكرتي؟

كاد أن يدهسك القطار! فغر فاه دهشة قائلاً كيف عرفت؟ هززت كتفي ونهضت لأعود لبيتي فأعاد سؤاله: كيف عرفتي؟

لم أعرف، تخيلت أن قطاراً كاد أن يدهسك، فأنقذك أحدهم بجرك، فترك القضيب أثراً على جسدك..

قلت ذلك وخرجت، عرفت الرجل الآن هو من كانت تقصدة أمي، كيف عاد بعد هذه السنين؟ بل لماذا عاد؟ كنت أعرف أنه سيلحق بي ليعرف كيف عرفت سره، وممّن، قبل أن أدخل ناداني "تهاني.. تعالي"، فقلت "أنا تعبانة جداً، قد أموت الآن" أجد نفسي أهزئ بكثير من الحديث لا أعي ما هو.. هربت منه، لكن ظل سؤاله معلقاً حولي أو قد يهرب بعد علمه معرفتي لسره، لكن لم يهرب، بل انتهز أول فرصة صباح اليوم التالي ليسألني عما أعرفه، فقلت "أعرف كل شيء لكن لماذا هربت؟ ولماذا عدت؟».

"لم أهرب، ذلك اليوم قبضت عليّ الشرطة ورُحِّلت، سُجنت

سـنوات قليلـة ظلـماً، وضـع أحدهـم الحشيشـة في مخـزن السـكر وبلـغ العسـكر فأتـوا بحثـاً عـن شيء لا أعـرف عنـه، لم يصدقنـي أحـد بطبيعـة الحـال، رحلـت وحكـم عـليّ وأول خروجـي أتيـت بحثـاً عنهـا، وجـدت صبيـين يلعبـان حولهـا، فعرفـت أن قصتنـا انتهـت وأنهـا وجـدت رجـلاً تتكـئ عليـه وأنجبـت منـه البنـين، عافتهـا نفـسي، كيـف أعـود لامـرأة عقبنـي عليهـا رجـل؟! فعـدت أدراجـي وفي نفـسي سـؤال لم يُجـب عنـه: كيـف تزوجـت وهـي متزوجـة منـي، وإن كان في الـسر فهـو زواج بـأي حـال؟

"أمي لم تتزوج".

"عرفت لكن بعد رحيلها بوقت طويل".

احتقرتـه أكـثر، لـو كان لي مـن الأمـر شيء لطردتـه، كانـت الإشـارات واضحـة إلا أني غبيـة، لم ألحـظ مداومتـه عـلى الاطـلاع في كتابـه الوحيـد ذلـك، لم أسـتمع لباقـي ثرثرتـه، فلـم يعـد الأمـر مهـماً، رحـل الرجـل تـاركاً قبـل أمـي أخـرى، مـاذا أخبرهـا حـين عودتـه؟ كاذب حقـير!

# 12

بـدأت أعـرف المظاهـرات وأشـارك فيهـا يـا للعجـب! سـتخرج في الزمـن المحـدد، علمـت ذلـك وحـدي مـن خـلال الطـرق عـلى جـردل البوهيـة، إذ تكـرر ومـع الصـوت يبـدأ الهتـاف بزغـرودة، ويسـتمر الهتـاف قليـلاً ليعقبـه صـوت البمبـان والدخـان في بيوتنـا، كأن في الجـو فلفـلاً أو شـطة، لا أعـرف، لكنـه حـارق، كلـما غسـلته زاد احتقـاني، تشـجعت بعـد ذلـك اتسـحب وأجـري قبـل أن يقبضنـي العجـوز لألحـق بهـم دون علمـه، إن عـرف سـيضحك عـليّ، ويتهمنـي بالجهـل وعـدم الفهـم كعادتـه، وأني صغـيرة عـلى الخـروج في مظاهـرات. أول يـوم سـمعت الـضرب عـلى الجـردل

والزغاريد مددت رأسي لأشتري إن كان بائع الترمس، فوجدت بعض بنات وأبناء الجيران بدأوا في التجمع أمام الساحة قرب منزل ثناء، والهتاف يعلو رويداً رويداً إلى أن علا، وبدأ غالبية أهل الحي في الخروج، بعضهم ينضمون له والبعض الآخر يقف متفرجاً على ما يحدث. خفت، فلم أخرج مباشرة، كنت أخرج فقط وأمد رقبتي لتكشف وحدها الشارع دون جسدي، عند رؤيتي عربة البوليس أدخل سريعاً، مطلقة صفارة حادة من فمي، علمني لها أخي، تقف السيارة على ناصية بيتنا بصورة شبه دائمة، المرة الثالثة خرجت وبدأ الخوف يقل، لكنه موجود، وسرت معهم قليلاً وهم يهتفون "حرية سلام وعدالة"، حاولت الدخول في نصف الموكب لئلا يقبضني العجوز، وقبل أن نصل الشارع الرئيس تم تفريق الجماعة بالبمبان والضرب بالهراوات، فأسرع الشباب بالهرب قبل أن تصل إليهم البكاسي، واستمرت المطاردة وقتاً أطول في الشوارع والأزقة، فقبض القليل وتجلد آخرون ثم التقوا للمرة الثانية ببعضهم في الشارع، واعتُقل آخرون ثم عاود الناجون الأمر ليلاً، أحببت الأمر وتدفق الحماس إليَّ بصورة عجيبة وعرفت متى يخرجون أسبوعاً بعد أسبوع.. ود الحلب أول من انتبه لي ليقول "انتي يا بت مش أخوك سالم؟".. "أيوة".

طيب ارجعي انتي صغيرة الكلام دا خطر عليك أتراجع عن بصرة لكي أختفي بين الشباب، كانوا قلة، فسريعاً ما يقبضني للمرة الثانية، قائلاً "اسمك منو انتي؟».

تهاني

"يا تهاني ارجعي الكلام دا خطر عليك وانتِ لسة طفلة".

ضحكت، فالحياة التي عشتها هو لم يعش ربعها لأقول "لست صغيرة".

"طيب انتي طالعة ليه؟»

"عشان الناس طالعين شوف بنات الحلة كلهم برة حتى ديك ثناء".

"كلهم كبار في الجامعة أو الثانوي عودي الآن ووعد سأدعك تفعلين شيئاً فاعلاً فيما بعد".

عدت بضجر لكن أعجبني اهتمامه بي ستموت ثناء من الغيظ إن عرفت اهتمامه بي وخوفه عليّ إلا أن ظني خاب سريعاً أتت إليّ المغرب على غير العادة، في السابق كانت ترسل سلامها دون انتظار لردي عليها، وأنا أنتظر أمام اللساتك لتقول سريعاً "أخبرني عوض بشأنك أتعرفين القراءة جيداً؟".

"نعم" وشكرت في سري العجوز لولاه لضحكت عليّ، مدت ورقة قالت "اقريها وبينا تلفون". ثم أسرعت مبتعدة إلى أمام بيتهم، وهي تحمل ابن رجاء كعادتها تقف في انتظار الحبيب، كما ظننت، لم يخب ظني، وأتى يرتدي قميصاً أزرق ويفتح أزراره الثلاثة، لكن يرتدي فانيلة داخلية أخفت صدره، ألقى التحية كعادته وداعب الطفل ثم أعطاها ورقة، لم يتعمد لمسها كما تخيلته سابقاً، بل تعمد أن يضع الورقة داخل ملابس الطفل، حملتها سريعاً نظرت إليها ثم أكلتها وواصل مسيره، فتحت

الورقة لأجد بها كلام عن نظافة الشارع وحملة "سنبنيهو.. الميعاد غداً السبت" غضبت، كيف يمنعني من التظاهر ليجعلني أنظف الشارع وأجمع القمامة؟!

خرجت باكراً أحمل أدوات النظافة لأنظف أمام البيت وجدت الجميع يفعلون ما أفعل حتى ثناء وأخواتها. خرج العجوز ليرى ماذا أفعل، ثم دخل وعاد يحمل (كوريك) لجمع الأوساخ منعه الشباب، لكن واصل وأنا ابتسم.. بدأت البنات يلقين للتحية ثم القفشات. الأسبوع التالي خرجت للنظافة، فخرج جميع من يخرجون في المظاهرات السابقة، وسلم علي الجميع بترحاب وإلفة، لكن استمرت ثناء في منعي من الخروج، وإن كانت تحمل لي أحياناً بعض الأوراق الصغيرة لأكتب عليها بعض العبارت. صار شارعنا مكاناً دائماً للتجمع والتظاهر، خاصة خلال الليل، فمنعت من الجلوس وانتظار اللبن أمام المنزل، لكن كنت اتسحّب وأخرج قبل أن تصل عربات الشرطة والأمن أعود أدراجي، ثم يفرقون المتظاهرين ويغادرون، فأخرج مرة أخرى لألتقط فوارغ البمبان وأجد الآخرين قد خرجوا، فينتهرني العجوز متوعداً، ثم يلتقيني باسماً عند رويته لفوارغ البمبان.. صباح اليوم التالي دعوا لتظاهرات حاشدة قبل تجمعهم احتلت الميدان عربات الأمن ومكافحة الشغب، تم اعتقال عوض ود الحلب رغم ذلك استمرت الكتابات على الحيط، بشعارات "تسقط بس" و"حرية سلام وعدالة" و"مليونية السادس من أبريل".

سيد الزريبة بعد وضع قوات دائمة في بداية الحلة لفض

التظاهـرات قبـل وقوعهـا بـدأ يعلـن بيـع جـوالات الحطـب بسـعر أقـل، سـيرحل الزريبـة في مـكان لا يبعـد كثـيراً عـن حلتنـا "راحـل ملكـة" كـما يتفاخـر دومـاً رغبتـة في الخـروج مـن المنـزل دون أن يسـأله أحـد فرحـت «أخـيراً سـيذهب في سـتين ألـف داهيـة".. ليقـول العجـوز "أصـلاُ دي المواعيـد الـكان مفـروض يطلـع فيهـا بعـد السـنوات السـبع وسـتة شـهور دون أجـر، غـير ذلـك الحركـة في الشـارع بقـت مهـددة لتجارتـه غـير المشروعـة حتـى بعـض أصدقائـه مـن الشرطـة والذيـن كانـوا يوفـرون لـه بعـض الحمايـة اختفـوا، لعلهـم هـم مـن أخـبروه بتغيـير المـكان سـيختفي الأن، وقـد يعـود في وقـت آخـر، بـدأ في تجهيـز نصـف بيتـه لاسـتخدامه بـدلاً عـن بيـت أمـك هـذا كـما أخـبرني..

"لكن يبيع الطلح بسعر رخيص"

"سيختفي فترة من الزمن ويعود في ثوب آخر"

تَمَّتْ